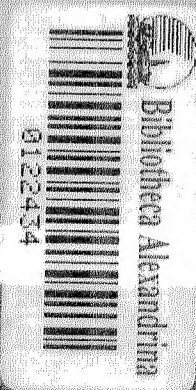


مع

النبی فی رمضان

ساح کریم



انشر مكتبة الشاذلي بالناصرة

مع النبي في رمضان

سأح كريم

الطبعة الأولى
١٩٨٩ = ١٤٠٩ هـ

الناشر مكتبة الخانجي بالهاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

تصميم الغلاف : يسرى موافى

رقم الإيداع ٣٣٢٧ / ١٩٨٩ م

إهداء.....

إلى شقيقى اللواء أركان حرب الفاتح كريم

عضو مجلس الشعب ..

كنت تشفق على من متاعب مهنة القلم ، وكنت أشفق عليك
من مشقة حياة السيف ... وكثيرا ما تحدثنا حول أيهما أصدق إنجازا لعودة
الحق فى عالمنا المعاصر ... العالم الذى يقترب أحيانا من حافة الهاوية .
فيختار الدبلوماسية حلا بدلا من الصدام المسلح . حتى كانت حرب
العاشر من رمضان (السادس من اكتوبر) زمانا . ومعركة (جبل المر فى

سيناء) مكانا . يومها كان الحل الحاسم للسيف . يوم أن صنعت لأمتك
العربية الإسلامية أعظم ملاحم البطولة فوق هذا الجبل - الذى سمي
باسمك . فأصبح الآن (جبل الفاتح) تقديرا من أمتك لفدائك
وبطولتك ...

وهذه صفحات من هدى النبى ﷺ فى رمضان ، تعودنا أن
نقتدى بها منذ الصغر . لا لأن أباءنا علمونا أننا ننحدر أصلا من الأرض
الطاهرة التى شرفها بنوره . ولكن لأننا حين تعرفنا على سيرته ﷺ .
أكبرنا فيه كل الفضائل . ومنها فضيلة التمسك بالحق . فتعلمنا التمسك
بالحق ... أنت فى ميدان المعركة فى سيناء ، وأنا فى ميدان صناعة
الكلمة . نعم تعلمنا التمسك بالحق مهما تكن شدة المتاعب والمشاق
والخاطر ، ومهما تكن صولة الباطل والطغيان والعدوان ...

فإليك أهدي هذه الصفحات . عسى أن تجد فيها صدق لأحاديثنا
الطويلة حول القلم حين يسعى جاهدا نحو الحق □

اخوك
سامح

كلمة لأبد منها ...

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما شرعت في تأليف كتاب ... كانت المقدمة هي أكبر
المشاكل التي تواجهني ... إلى درجة أنني عادة ما أرجع هذه المقدمة يوما
بعد يوم ... حتى أفرغ تماما من كتابة فصول الكتاب نفسه ، مع أن

خطوط هذه المقدمة تلتصق دائما في خاطري على الأقل أثناء العمل في هذا الكتاب . وكيف تغيب عني هذه الخطوط المتمثلة في فكرة الكتاب نفسه . وهي تشغلني طوال الوقت ؟

إن هذه الفكرة ... فكرة أى كتاب حين تسيطر على عقل صاحبها تغدو كالمملكة المستبدة التي تذكر ولا تنسى ، تحاسب ولا تصفح ، تعاقب ولا ترحم . حتى يستوعبها هذا العقل استيعابا كاملا . من بعده يتمثلها ويتجسدها كصورة واضحة متكاملة في سماتها وقسماتها ، بعدها يستطيع العقل تقسيمها إلى أجزاء وفصول ، وترتيب هذه وتلك إلى موضوعات وفقرات ، في هيكل واحد ، ونسق منسجم ، ثم تنظيم كل ذلك ليكون في النهاية عملا جديرا بفكرته الأولى .

ورغم وضوح هذه الخطوط ، التي من مجموعها يتكون ما يسمى بالمنهج في ذهني . إلا أنني مع ذلك . لا أستسيغ كتابة مقدمات الكتب . حتى أصبحت كتابة المقدمة عندي ... تتطلب جهدا ربما يصل أحيانا إلى ما تتطلبه كتابة الكتاب نفسه .

ولعل عدم استساغة كتابة المقدمات عندي ... ترجع أساسا إلى أنني أكتشف أحيانا أن مقدمة يدبجها المؤلف أو صديقه أو ناشره .. ربما تكون - في بعض الأحيان - إما تسويغ لخطأ أو تزيين لقصور أو ثناء يبتز ذكاء القارئ . أو ربما يرجع عدم استساغة كتابة المقدمات إلى أن بعض الأعمال الجليلة - مثل هذا العمل الذي أشرف بالتصدي له - لا تحتاج من كاتبها إلى مقدمات . فهي بكل جلالها وشموخها وثرائها ... كفيلة بأن

تقدم نفسها ، بل وكتبها إلى القارئ . وقد يرجع عدم الإقبال على كتابة هذه المقدمات لأي كتاب إلى مسابقي لروح العصر الذى نعيشه . وهو عصر يتسم بالمباشرة والسرعة . وهذه وتلك تقتضى الدخول فى الموضوع دون مقدمات . إذ ليس لدى القارئ فى هذا العصر وقتا كافيا ينفقه فى قراءة مقدمة أو استهلال أو خطبة كما كان يصنع السلف الصالح . فى وقت تقتحمه وسائل أخرى للثقافة أيسر وأسهل فى توصيل المعارف . بمجرد الضغط على واحد من الأزرار . حسب هذا القارئ أن يجد لديه وقتا يكفى لقراءة مادة الكتاب نفسه .

ولهذا ولغيره تمنيت كثيرا - كلما شرعت فى تحرير صفحات كتاب - ألا أكتب مقدمة تحلى جيدها . متصورا أننى لو فعلت ذلك . فإن قارئها لن يرميها بالنقص أو التقصير . بل ربما يحمد لها هذا التكشف .

وفى هذا الكتاب ، تمنيت لو تركت القارئ وجها لوجه مع هذا الهدى المحمدى الشريف ... ملتصقا منه ما يصلح زاداً لدنياه ، وعملاً صالحاً لآخريته . تمنيت أن أفعل ذلك دون تدخل منى . لكن حال بين ما أتمنى ظروف هذا الكتاب نفسه . فهناك أسباب تجعل للمقدمة وجوداً ضرورياً فى هذه المرة . وعملاً لا بد منه .

من هذه الأسباب وجوب التنويه عن أن فصول هذا الكتاب كانت فى الأصل مقالات تنشر يوميا بالأهرام - بمعاونة صديق الحياة الأستاذ محمود مهدى مساعد رئيس تحرير الأهرام جزاه الله خيراً - فى رمضان العام الهجرى ١٤٠٦ الذى يوافق عام ١٩٨٦ . وهنا أيضاً وجب التأكيد على

أن ما كان يصلح مقالاً يومياً صغيراً في صحيفة سيرة . لا يصلح مادة متكاملة لفصل في كتاب . لقد كان على كاتب هذه السطور أن يقوم بإعادة كتابة فصول هذا الكتاب من جديد مستفيداً بالطبع من مقالاته اليومية . كخطوط عريضة تعيدني مرة أخرى إلى المنابع الأولى التي عاونت في تكوين مادة هذا الكتاب . محافظاً - قدر الامكان - على الشكل الذي استقبله قارئ مقال أمس ، وفي الوقت نفسه محافظاً على المنهج الذي يتطلبه القارئ لفصول الكتاب. من حيث الاتساع والعمق والتوثيق بشكل يصل إلى خمسة إضعاف ما كان يكتب من قبل أملاً في تجنب « الخطأ » الذي يقع فيه البعض . حين يعتبرون المقال فصل في كتاب . رغم الفارق الكبير بين المقال في صحيفة والفصل في كتاب .

* * *

وثاني هذه الأسباب هو التأكيد على أنني لا أعيد كتابة السيرة النبوية الشريفة ... حتى لو كنت قد شرفت بقراءة عشرات الكتب ، واكتشفت طرائق جديدة للتناول . إن إعادة كتابة السيرة النبوية الشريفة ليست موضوع بحث هذا الكتاب . الذي لا يتعدى طموحه العلمي أن يسجل جانباً من الهدى النبوي الشريف في رمضان . أى يلتزم - قدر الإمكان - بالجانب الخاص بحياة النبي ﷺ في رمضان . بحيث يستشف القارئ الكريم الصورة الحية لجانب من جوانب المجتمع الإسلامي في عصر النبوة محاولاً أن يعيش التجربة المثلى التي عاشها النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم في ذلك الشهر المعظم .

* * *

ثالث هذه الأسباب هو التأكيد على أنني كنت كغيري ممن تصدوا للكتابة عن جانب من جوانب السيرة الشريفة - مجرد قارئ استفاد من فضل السابقين ، ورغب أن يشاركه الآخرون في هذه الاستفادة . مدركاً أن هذا الجهد الذي يسعفه عون من الله وفضل . ليس سوى إيماءة إلى هذا الصرح الشاخص للتراث المحمدي الخالد . آملاً أن يكون مرجعاً بين يدي القارئ يعود إليه إذا أراد بحثاً يختلف في منهجه وتناوله عن غيره من البحوث . وحسب هذا الكتاب وصاحبه ... من طموح علمي ... أن يكون في متناول من يحتاج إليه بصورة ميسرة .

* * *

ترى هل بقي لي ما أقوله ؟

نعم . أريد أن أقول مؤكداً . أنني بهذه الصفحات . لا أزعم أنني أضيف جديداً إلى ما كُتِبَ عن السيرة النبوية ، وإن كنت مع ذلك أحاول أن أفتح باباً جديداً للحب الفكري . لهذه السيرة العطرة وصاحبها ﷺ . وللدين الإسلامي الحنيف . الذي قدّم للتفكير البشري مساحات هائلة من إمكانية التأمل والبحث . مجرباً كل مقوماته في الإقناع والصدق ، متتبعا كل وسائله في الدقة والموضوعية .

بعد ذلك يخق للقارئ إذا كان سيقراً هذا الكتاب صفحة صفحة ، فعليه أن يناقشه كلمة كلمة . فهذه الصفحات التي كتبت في رحاب السيرة النبوية إذا طمحت إلى شيء . فربما تطمح إلى أن تحفز هذا

القارىء وتحرك عقله فى الجهات الأربع . تحفزه إلى تنمية فضيلة التفكير .
على إعتبار أنه إذا كان التفكير فضيلة كرم الله بها الانسان على الأرض .
فهو فى الإسلام فريضة .

هذه الصفحات تدعوك - وهذا هو المهم - إلى حمل أمانة وجودك
كإنسان يؤمن بعقيدته بفهم وإقناع ، بحجة ودليل ، بعلم ومعرفة . فتحاور
كل ما حولك وتفكر فيه . حتى تصل إلى رأى صائب . ويوم أن تصل إلى
هذا الرأى . فلتواجه الدنيا كلها ... والله الموفق □ .

سامح كريم

المعادى : ١٩٨٩

قراءة جديدة فى سيرته

حول السيرة النبوية نرجو أن نكون ضيوفا مباركين فى رمضان .
ولقد تحدث كتاب كثيرون ، وكتب باحثون ودارسون أيضا فى هذه
السيرة . منذ اللحظة الأولى التى جاء فيها صاحبها عليه أفضل الصلاة
والسلام . ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا ، ومعلنا بلسان عربى مبين ...
يشكل موقفا باهرا ضد ما فى الحياة الإنسانية من ضعف وعجز ... أنه
ما جاء إلا رحمة للعالمين .

أقول لقد تحدث الكثيرون ، وكتب الباحثون والدارسون ... في سيرته عليه أفضل الصلاة والسلام بشكل يتطلب حصر أسماء هؤلاء وهؤلاء ثبنا علميا ضخما - وهو ما حاوله الناشرون لسيرة ابن هشام - ذلك لأن ظهور الرسالة المحمدية كان أعظم حدث في تاريخ العرب خاصة والبشر عامة . لأن حياة العرب السادة منهم والداهم - أيام النبي - كانت منصرفة لهذا النبي ﷺ ، وما بشر به من دين جديد هو الإسلام . فما اجتمع ملاً منهم أو تفرق إلا في الحديث فيه . ولا تحدثوا في منندياتهم إلا عنه ، ولا تحركت جيوشهم وكتائبهم إلا له . حتى صدق من قال أن قصارى بلائه - عليه أفضل الصلاة والسلام - فيهم إجتماعهم على الإسلام ، ونبذهم ما كانوا فيه من الجاهلية والضلالة حتى استقرت بين العالمين رسالته لتقيم العدل بين الناس ، ولتضرب المثل الأعلى في علو الهمة ، ونصرة الحق ، والتعاون على البر والتقوى ، والاستمسك بمكارم الأخلاق وبإختصار هداية البشر . وهذا وغيره هو ما تحفل به وتتضمنه السيرة النبوية التي إهتم بها وبالتأريخ لها هؤلاء وهؤلاء .

وكما يذكر المحققون لسيرة ابن هشام متفقين مع من سبقهم في الكتابة عن هذه السيرة العطرة ... لم يكن للعرب قبل مبعث النبي ﷺ من مادة التاريخ إلا ما توارثوه عن أجدادهم بالرواية . أى ما كان شائعاً بينهم من أخبار الجاهلية الأولى . كحديثهم عن آبائهم وأجدادهم وأنسابهم وما في حياة الآباء والأجداد من قصص البطولة والكرم والوفاء ، وما في أنسابهم من العزة والفخر وعلو الهمة . ثم حديثهم عن هذه المعالم

التاريخية التي يلتقون بها يوميا ... حيث أنها ماثلة أمامهم ... كالبيت وبئر زمزم وجُرْهُم ، وما جرى لسد مأرب من تفرق الناس في القبائل ... إلى غير ذلك من الأمور التي قامت في رصدها الذاكرة مقام الكتاب ، واللسان مقام القلم ... بشكل يعيه الناس جيدا ، ثم يحفظونه ثم يتناقلونه الخلف عن السلف .

إلى أن ظهر النبع الذي لا ينضب ، والمورد الجديد الذي لا ينتهى ... بظهور النبي ﷺ وظهور دعوته ... فكانت حياته ودعوته ... هى أحاديث الصحابة والتابعين ... أحاديث أستوعبت ولادته ثم حياته من بعد . وما ملئت به هذه الحياة من جهاد فى سبيل الله ، ومواجهه مع مَنْ ليس على دينه أو المشركين الذين لا يؤمنون بدعوته ... إلى جانب الدعوة إلى التوحيد ، ومطالبة العرب بالإيمان بإله واحد .. وهم وقتئذ يؤمنون بألهة متعددة . ومن هذا وذاك تكوّن للعرب ما يعرفه العلم الحديث باسم التاريخ فى المقام الأول ثم السيرة بعد ذلك .

إلا أنه مع ذلك لم يدوّن فى تاريخ العرب أو السيرة شئ - على ما تذكر أغلب المصادر - إلى أن مضت أيام الخلفاء . بل لم يدوّن فى هذه الفترة غير القرآن الكريم ومبادئ النحو . ذلك لأن لكل من الأمرين حافز قوى . فقد حفزهم الحرص على حفظ هذا الكتاب المبين أن يكتبونه ، كما حفزهم على استقامة اللسان العربى المبين وعدم تفشى العجمة عليه أن يدونوا قواعدا للنحو ... إلى أن كانت أيام معاوية بن أبى سفيان . الذى رأى أن يدون فى التاريخ كتاب للعرب . فاستدعى من صنعاء عبيد بن

شريه الجرهمي . وطلب منه ذلك . فكتب الجرهمي كتاب « الملوك وأخبار
الماضين » . وكانت هذه البداية - تقريبا - التي فتحت العيون ، وأيقظت
الألباب إلى إتجاه العلماء في البحث في علم التاريخ من الوجهة الخاصة .
وهي سيرة النبي ﷺ ولعلمهم - كما تعلق هذه المصادر - وجدوا في تدوين
كل ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام شيئا يحقق ما في أنفسهم من كل
حب وكل تقدير ، وكل رغبة في تخليد آثاره . بعد أن منعوا من تدوين
أحاديثه حتى أيام خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مخافة
أن يختلط الحديث النبوى بالقرآن الكريم . من هنا جاء أكثر من عالم
كلهم في الأصل محدثين ، ليدونوا في السيرة النبوية كتباً . في مقدمتهم
عروة بن الزبير بن العوام . العالم الفقيه المحدث . الذى يسر له نسبه من
قبل أبيه الزبير بن العوام ... أن يكون راوية للكثير من الأخبار والأحاديث
وجوانب كثيرة من الحياة في صدر الإسلام وقد أخذ عن عروة كثيرون ممن
يرجع إليهم وفي مقدمتهم ابن إسحاق والواقدي والطبري . وجاء بعد عروة
عدد من المهتمين بالكتابة عن جوانب هذه السيرة العطرة وفي مقدمتهم
« أبان بن عثمان بن عفان » و « وهب بن منبه اليمنى » و « شرحبيل بن
سعد » و « ابن شهاب الزهري » و « عاصم بن قتادة » و « عبد الله بن
أبى بكر بن حزم » وغيرهم حتى كان شيخ رجال السيرة محمد بن
إسحاق . الذى جاء بعده عدد من كتاب السيرة الثقات في مقدمتهم
« زياد البكائى » و « الواقدي » صاحب المغازي و « محمد بن سعد »
صاحب الطبقات و « ابن هشام » الذى انتهت إليه سيرة ابن اسحاق
فعرفت به وشاع ذكره بين الكاتبين بها .

واستمر الإهتمام بكتابة السيرة إلى يوم الناس هذا ... فما زال البعض يتحدثون والبعض الآخر يبحثون ويدرسون . والثالث يكتب ويبدع .. والكل يسأل : هل من مزيد للحديث وللبحث وللدراسة وللإبداع عن هذا الذى شاد بنيان خير أمة أخرجت للناس . وأضاف للحضارة الإنسانية مزيدا لا يحصى . وصنع بتعاليمه وقيمه ومبادئه أساس الدولة الإسلامية الممتدة - عبر الزمان - من يوم مبعثه إلى القرن الخامس عشر الهجرى .

التأليف فى سيرته عليه أفضل الصلاة والسلام لا ينقطع ، والحديث عنه لا ينتهى ، والبحث والدرس حوله لا يكف ، والأقلام بما تجرى به على الورق لا تجف . وما أظن توقفا لكل ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا الكم الهائل بكيفه ، الهادف بتوجهه ... يضع الباحث - عادة - أمام حيرة كبرى مصدرها هذا الإتساع الكمى والكيفى والذى يطرح تساؤلا : ومن أى زاوية يبدأ ليتحدث أو يبحث أو يدرس أو يكتب أو حتى يبدع ؟

ولقد حار فى الإجابة الكثيرون من شيوخنا وأساتذتنا عندما كانوا يشرعون فى التأريخ للنبي ﷺ وما يتصل به بعد ذلك من إقامة الدولة الإسلامية . ولعلنى أذكر ثلاثة من شيوخنا توقفوا طويلا عند هذا التساؤل : من أى زاوية يبدأون ؟ وهم : طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادى . عندئذ وصلوا - بعد تفكير طويل - إلى الإتفاق فيما

بينهم أن يختار أحمد أمين زاوية الحياة العقلية لهذه الدولة الإسلامية ومؤسسها النبي ﷺ . فيأخذ نفسه - ككاتب وباحث - في البحث والدرس عن هذه الحياة العقلية للأمة العربية الإسلامية إبان القرن الأول الهجرى وما يعقبه من قرون . فتبين له نتيجتين الأولى أن هذه الحياة العقلية للدولة الإسلامية كانت قوية خصبة ، والثانية أن هذه الحياة استوعبت إلى جانب الثقافة الدينية الثقافة الأدبية والفلسفية .

وأختار عبد الحميد العبادى الحياة السياسية للعرب إبان القرن الأول الهجرى . فللعرب منذ أيام الرسول ﷺ سياسة خارجية دقيقة ، ولهم أيضا سياسة داخلية متشعبة . وكلتا السياستين متأثرة بمؤثرات منها العربى ومنها الأجنبى . منها ما كان قبل الإسلام وما طرأ بعد الإسلام . والعناية بهذه الحياة السياسية أيام النبي ﷺ وقبله وبعده وتحليلها أمر واجب وهام . وأختار طه حسين الحياة الأدبية للإسلام . تلك التى تحتاج إلى نوع آخر من الدرس الفنى واللغوى لمجريات الأحداث فى عصر النبوة وما بعده . ليقدم الخلاصة والمرآة لألوان أخرى من الحياة الإسلامية . لا تمس السياسة ولا تمس التفكير العقلى الخالص . وإن اشتركت معهما فى خاصية فإنما فى وجوب العناية بالتحليل الدقيق .

فإذا كان هذا السؤال : « من أى زاوية تكون البداية ؟ » قد توقف عنده السلف من الشيوخ والأساتذة . فقد كان كذلك بالنسبة لكاتب هذه السطور المتواضعة . حيث توقف وحار .. إلى أن كان حلول شهر رمضان المعظم بمثابة الحد الفاصل بينه وبين هذه الحيرة .

أن تكون بدايتنا وزاويتنا ومنهجنا في أطار هذه الرحلة الممتعة مع هديه عليه الصلاة والسلام في رمضان . أن نتبع ذلك الهدى النبوى منذ المبعث حتى أن قبض إلى الرفيق الأعلى . راصدين منها ما كان في شهر رمضان على وجه الخصوص قبل الإسلام وبعده .

إذن مع رحلة عنوانها « مع النبى في رمضان » نحن على موعد معترفين ومؤكدين في نفس الوقت أن ما نصنعه اليوم ليس بمجديد نبتدعه . وكيف نصنعه أو نبتدعه أو نؤلفه ... وبحال العناية به والتأليف فيه متصل غير منقطع ؟ وأنه كموضوع في حد ذاته ليس بالأمر الذى يقوم على تجارب حاضرة تهدم تجارب قديمة . أو فكرة يقيمها برهان قديم وينقضها برهان جديد . شأن النظريات العلمية التى يكون الإتصال بها . إتصال تجديد وتغيير وتبديل على مر السنين ! .

الكتابة هنا - في جانب من السيرة النبوية - قائم على رواية الخلف عن السلف . والمحدثين عن الأقدمين . منذ زمن بعيد لعله منذ قام الإخباريون المسلمون الأوائل - كما رأينا - يتناقلون منها حتى وصلت إلى ابن اسحاق في النصف الأول من القرن الثانى الهجرى . ليسجلها ويشتها مدونة - في سيرة نبوية شريفة - ابن هشام في نهايات وبدايات القرنين الثانى والثالث الهجريين .

فمنذ البدء كان المشتغلون بكتابة السيرة النبوية محدثين وناقلين ثم جاء من بعدهم جامعون مبهوبون ، ولما استوى للمتأخرين ما جمعه المتقدمون ، جاء دور الشرح والتعليق مع بقاء هذا التراث المحمدى الخالد ثابتا غير قابل للجديد في جوهره . وكل لإجتهد فيه هو في إختيار طريقة العرض والتناول .

ولذلك يقرر المحققون للسيرة والمؤرخون لها . أن المهتمين بها . ينقسمون إلى فريقين . فريق عاش في ظل كتب الأولين يقرأها ويتأملها ويبحث في شرحه وتعليقه حتى يقرأها من عصره . وفريق صبغ أعماله بصبغة إبداعية . حيث جمع بين يديه كتب من سبقه في تناول هذه السيرة ليخرج على الناس بعمل مؤلف مبدع . في ظاهره له ، وفي حقيقته لغيره ممن سبقه في ذلك .

ولهذا يمكن القول إستنادا إلى هذا الرأي إن تناول السيرة . هو في الأصل قارئاً . قرأ وتأمل ثم اجتهد في البحث عن طريقة جديدة في العرض والتناول .

وهذا عين ما حدث لى مع هذه الصفحات التالية . الاستفادة بكل ما قدمه المتقدمون من دراسات وأبحاث وإبداعات ، حتى يمكن القول بأنها لن تتعب الذين يريدون أن يردوا مادتها القديمة في جوهرها وأصلها الجديدة في شكلها وتناولها . إلى مصادرها الأولى وفي مقدمتها القرآن الكريم ، والأحاديث القدسية ، والأحاديث النبوية ، والسيرة النبوية لابن هشام ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وبغية الوعاة للسيوطي ، وتاريخ الطبري ، وتاريخ ابن كثير ، وعيون الأثر في المغازي والشمال والسير لابن سيد الناس ، والفهرست لابن النديم ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، وإمتاع الاسماع للمقرئزي ، وزاد المعاد في هدى خير البلاد لابن قيم الجوزية ، وإحياء علوم الدين للغزالي ، وتفسير المنار ، وفقه السنة للشيخ سيد سابق ، وفتاوى الدكتور عبد الحليم محمود ، وحياة محمد

للدكتور هيكل ، وعلى هامش السيرة للدكتور طه حسين ، وعبقريّة محمد للعقاد ، وفجر الإسلام لأحمد أمين ، ومحمد الرسول البشر لتوفيق الحكيم ، ومحمد نبي البر لإبراهيم الأبياري ، ومحمد رسول الله والذين معه للأستاذ السحار ، ومحمد رسول الحرية للشرقاوي ، إلى جانب هرم من الكتب لها صلة بالسيرة النبوية عامة ، وموضوع البحث خاصة ... وهو ما تزودت من فضله زادا يعلن عن نفسه كلما دغّت الضرورة .

وقراءة هذه المصادر كانت بمثابة الأضواء الكاشفة التي يسرت لي تسجيل كل ما يتصل بهدى النبي ﷺ في رمضان ، ثم ما اسعى اليه من معارف تتصل بحياة النبي ﷺ بوجه عام . ومن هذه وتلك تكونت صفحات مع النبي في رمضان . كما تكوّن لدى الأمل العظيم في مستقبل الإسلام ... كقوة عالمية في ميزان القوى العالمية . لأن هذا الدين قام في الأصل على قيم ومبادئ تحق له أن يتبوأ مكانته الحقيقية وإن طال الزمن . هذه المكانة التي جعلته في يوم من الأيام يقهر القوتين العظمتين في العالم القديم ويؤذن بقيام حضارة عربية اسلامية تقوم على اساسها الحضارة الأوروبيه الحديثه □

الصوم قبل مبعثه

تحدثنا الكتب القديمة والحديثة معا . أن شهر رمضان شهر قديم
الحرمة في الجاهلية العربية ، قديم الشهرة في الأمم والديانات السابقه على
الإسلام . هذا الدين الذى فرض . صوم هذا الشهر دون غيره .
وحديث هذه الكتب حق بنص الآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فقد

كان من عادة العرب الأقدمين في الجاهلية أن يصوموا أياما منه يبدأونها من منتصف شعبان أحيانا . تيمنا بالصيف وتقربا إلى آلهتهم أن تجعل الصيف موسما من مواسم الخصب والتماء . ولهذا فكثير ما تداولوه كمعنى في أدبهم أو لغتهم .

ففى الأدب العربى القديم نقرأ للشيخ الباقورى فى كتابه « مع الصائمين » ما يسجله بأن العرب فى الجاهلية قبل البعثة المحمدية كانوا يعرفون للصيام معنى تداولوها فى شعرهم ونثرهم ورواها الأخلاف عن الأسلاف . ومن تلك المعانى الإمساك عن الحركة حيوانا كان الممسك أو جمادا أو إنسانا ، وكل ذلك فى عرف اللغة صيام . على سبيل المثال قال النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة

تحت العجاج وخيل تعلق اللجما

هنا جعل الشاعر الخيل ثلاثة أنواع . نوع منها صائم قائم فى معتقه لا يتحرك ، ونوع تحت العجاج والغبار فى ميدان المعركة ، ونوع ثالث متأهب لدخول المعركة فهو يعلك لجامه كما يعضغ بعض الناس العلك أى اللبان .

وهناك أبيات كثيرة من الشعر الجاهلى يفيد قولها صيام الريح وهم فى الحقيقة يعنون لصيام الريح ركودها وعدم حركتها كقولهم صامت الشمس فى أبيات أى يعنون أنها قامت فلم تبحر مكانها عند إنتصاف النهار . ويصفون البكرة بالصيام حين تقف وتستعصى على الدوران . فلا يخرج لهم الدلو من البئر على ما يقول شاعرهم :

شر الدلاء الولغة الملازمة

والبكرات شرهن الصائمه

يعنى أن الدلو الصغيرة التى لا تفارق صاحبها لأنه لا يجد بديلا منها . هى شر الدلاء . وأن البكرة المستعصية على الدوران هى شر البكرات عند عرب الجاهلية .

وكما اطلقت العرب كلمة الصيام على الموضع الذى يقوم فيه الفرس دون حركة ، أطلقوا هذه الكلمة نفسها على الموضع فى السماء . الذى تظهر فيه الثريا للناظر كأنها معلقة لا تحول ولا تزول . لأنها فى عينيه ثابتة لا تتحرك . وهو قول إمريء القيس يصف طول الليل متبرما به :

كأن الثريا علقت فى مصامها

بأمراس كتان إلى صم جندل

فإمريء القيس يتخيل فى هذا البيت أن مجموعة النجوم المعروفة بالثريا ثابتة فى موضعها لا تتحرك فكأنها مربوطة إلى صخور صم بحبال من الكتان متينة الفتل .

وقد ورد الصيام فى القرآن الكريم بمعناه اللغوى فى قول الله تعالى على لسان السيدة مريم عليها السلام ﴿إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ فالصوم فى هذه الآية يعنى الصمت والإمساك عن الكلام وهو يفيد أيضا بنص هذه الآية أنه كان معروفا قبل الإسلام .

كذلك كان العربى القديم ينعت رمضان بالناتق أى الناقاة الولود
أو أى مكيال السوائل اشارة إلى كرم هذا الشهر ، وحتى اسمه مشتق في
لغتنا العربية من الرمض وهو المطر الذى يأتى قبل الخريف فيجد الأرض
حارة محترقة . إلا أن فريق آخر يرى أنه مشتق من الرمضاء أى شدة الحر .
فيقولون رمضت قدمه أى احترقت من شدة الحر . وسمى بذلك للارتماض
من حر الجوع والعطش . وقيل إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب
ويحرقها بالأعمال الصالحة . وقيل أيضا لأن القلوب تأخذ فيه الموعظه
والتفكير فى أمر الحياة الآخرة . كما تكتسب صخور الفيافي ورمالها من
حرارة الشمس . وقيل أيضا كما يذكر الشاعر مصطفى عبد الرحمن فى
رمضانياته أن العرب كانوا يرمضون اسلحتهم فى رمضان أى يذفونها ،
ويخفونها بين الحجارة استعدادا للحرب فى شوال قبل حلول الاشهر الحرم .
وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن رمضان مشتق من رمض أى
مشتق من حرارة الصيف الذى يسبب حرارة الجوف من شدة العطش مما
يدل على الفصل الذى وقع فيه هذا الشهر فى فصول السنة حينما كان
العرب الأقدمين دائبين على محاولة التوفيق بين سنتهم والسنة الشمسية
وذلك بالاستعانة بأشهر النسيء .

وهكذا نلاحظ أن معنى الصوم من الناحية الأدبية واللغوية فى لساننا
العربى ، وثيق الصلة بمعناه من الناحية الشرعية . فالصوم شرعا هو الإمساك
عن المفطرات من طعام وشراب وغيرهما مع إقتران النية به من طلوع الفجر
حتى غروب الشمس . وأن تمامه وكأله هو باجتناب المحظورات وعدم

وفي سفر الملوك : « ثبت أن النبي ايليا عليه السلام سار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل يسمى حوريب » .

وفي سفر زكريا (الاصحاح الثامن) : « هكذا قال رب الجنود إن صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبني يهوذا . ابتهاجا وفرحا وأعيادا طيبة فأحبوا الحق والسلام » .

وفي إنجيل متى (الاصحاح السادس) : « وأما أنت فمتى صمت فأذهن رأسك وأغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائما . بل لأبيك الذى فى السماء وأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية » .

وفي الاصحاح السابع عشر : « لما رأى عيسى عليه السلام فتى وأخرج منه الشيطان قال لأصحابه : وأما هذا الجنس من الشياطين فلا يخرج إلا بالصوم والصلاة » .

وفي إنجيل متى : « أن السيد المسيح عليه السلام صام أربعين يوما فى البرية . وأن الحواريين رضى الله عنهم كانوا يصومون عن اللحم والسمك والبيض واللبن » .

وفي رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (الاصحاح السادس) : « بل فى كل شئ نظهر أنفسنا كخدام الله فى صبر كثير ، فى شدائد ، فى ضرورات فى ضيقات ، فى ضربات ، فى سجون ، فى اضطرابات فى أتعاب فى اسهار فى أصوام » .

وفي سفر الملوك : « ثبت أن النبي ايليا عليه السلام سار بقوة تلك
«سكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل يسمى حوريب » .

وفي سفر زكريا (الاصحاح الثامن) : « هكذا قال رب الجنود إن
يوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبيت
هوذا . ابتهاجا وفرحا وأعيادا طيبة فأحبوا الحق والسلام » .

وفي إنجيل متى (الاصحاح السادس) : « وأما أنت فمتى صمت
أدهن رأسك وأغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائما . بل لأبيك
ذى فى السماء وأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية » .

وفي الاصحاح السابع عشر : « لما رأى عيسى عليه السلام فتى
أخرج منه الشيطان قال لأصحابه : وأما هذا الجنس من الشياطين
لا يخرج إلا بالصوم والصلاة » .

وفي إنجيل متى : « أن السيد المسيح عليه السلام صام أربعين يوما
فى البرية . وأن الحواريين رضى الله عنهم كانوا يصومون عن اللحم والسمك
والبيض واللبن » .

وفي رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (بالاصحاح
السادس) : « بل فى كل شئ نظهر أنفسنا كخدام الله فى صبر كثير ،
فى شدائد ، فى ضرورات فى ضيقات ، فى ضربات ، فى سجون ، فى
اضطرابات فى أتعاب فى اسهار فى أصوام » .

هذه الأنواع المختلفة من الصوم جميعا . كانت معهودة في الأمم القديمة والديانات السماوية . وكان منهم من يصوم عن أصناف من الطعام ، ومن يصوم عن الطعام والشراب ساعات ، ومن يصوم عنهما من مطلع النجم إلى مطلعته في اليوم التالي ، ومن يصوم عن الكلام إلا أن يكون تسبيحا أو دعاء إلى الله .

أما هذا العصر الذى نحن فيه - كما يقول الأستاذ العقاد - فإنه بدعة العصور قاطبة في الصوم . لأنه أكثر العصور صوما وأقلها صوما في وقت واحد .

فهو أكثر العصور صوما . حين يصوم البطل الرياضى ليضمن الفوز في حلبة الرياضة . أو حين تصوم المرأة الدهر كله طلبا للرشاقة ، أو حين يصوم الرجل فيجود بشحمه ولحمه طلبا للوجاهة الاجتماعية ، أو حين يصوم البعض احتجاجا على سياسة معينة ... وأن عصرنا أقل العصور صوما في طلب الرياضة الروحية وما يشبهها . وأنه من أجل ذلك بدعة بين العصور .

وشهر الصوم في الإسلام له تقدير خاص . فقد بلغ من تقديره أن النبى ﷺ قال : « نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان ، وأنزلت لتوراة لبست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، والقرآن الكريم لأربع وعشرين من رمضان » معنى هذا أن كل الكتب السماوية نزلت في شهر رمضان .

بل أنه بلغ من تكريم الإسلام لهذا الشهر وتفضيله على سائر الشهور أن البعض من مفكرى الإسلام وفقهائه يرون أنه اسم من أسماء الله . معللين ذلك أنه كلما ذكر قيل « شهر رمضان » ولم يذكروه مفردا مجردا بغير إضافة كما يقولون عن غيره من الشهور العربية « شعبان أو صفر أو المحرم » .

ويروى صاحب لسان العرب عن مجاهد رضى الله عنه كان يكره أن يجمع رمضان لأنه يجمع على وزن المئوثة السالم فيقال رمضانات . مؤكدا أن هذا لا يجوز مع اسم من أسماء الله عز وجل .

وهكذا عرف شهر رمضان فى الاسم ، وقبل الاسلام □ .

وصدقت

رؤاه

وكعادة أجداده العرب كان النبي ﷺ ينتزع نفسه بعيدا عن الناس في رمضان . ليخلو بها هناك معتزلا متعبدا في الصحراء . وما كان أسعده ﷺ حينما يخلو إلى نفسه مفكرا متأملا ما يجري حوله في مكة أو حول مكة والجزيرة العربية في العالم القديم ... كان يستولى عليه شعور غريب هو الأطمئنان ، فكان يسير وحيدا بعكس ما كان عليه قومه . لا يشيرون في الصحراء إلا في كوكبة من الرجال الأشداء . وإذا انفرد أحدهم اضطرابا ... أحس الوحشة والرهبة . ولكن رسولنا الكريم أحب هذا الخلاء الذى فيه تسبح نفسه متأملا متفكرا .

ترى فى ماذا كانت تسبح هذه النفس الكريمة متأملة متفكرة ؟ هل كانت تحدها حدود مكة وشعاب جبالها ؟ هل كانت تحدها حدود وتخوم الجزيرة العربية ؟ أم أن هذه النفس المطمئنة قد سبحت فى أمور أخرى ؟

تحدثنا الكتب المهمة بالسيرة النبوية قديمها وحديثها فتذكر أنه لم تكن الجزيرة وحدها هى التى تعنيه . ومن المؤكد لم تكن مكة أيضا برجها وجبالها ووديانها هى التى تعنيه أيضا . وإنما كان هناك ما يعنيه إلى جانب الجزيرة العربية ومكة ... لقد طاف بخياله بالشمال والجنوب ، وعرف - ﷺ - الكثير عما يحدث فى بلاد الفرس والروم . والدولتان تمثلان القوتين الأعظم فى العالم القديم . ففى كل مكان من هاتين الدولتين الكبيرتين تهدر كرامة الإنسان ، ويسيطر الغيظ أحيانا ... حتى تمتد يد المرأة الحنون إلى قلب خصمها بعد أن يقتل فتأكل منه القلب الحى . وتعلق الدم !

فى هذا العالم القديم . مازال الملاك الكبار فى بلاد الروم - إحدى القوتين الأعظم - يصنعون بالرجال والنساء . ما يصنعه المرابون الكبار فى بلده مكة أو ما يصنعه الرؤساء والدهاقين فى بلاد الفرس ثانية القوتين الأعظم .

فى مكة والجزيرة العربية ، وفى بلاد الروم وبلاد فارس كان يقضى على الإنسان بإسم قوى الخفاء التى لا تقاوم ولا ترد . وهى قوى لا تشبع إلا من دم الضعفاء ، ولا تقتات إلا بالذلة والهوان ...

هى فى مكة تتخذ اسم الاصنام ، وفى بلاد الفرس تتخذ اسم

الآلهة والأرباب ، وفي بلاد الروم تتخذ اسم الاحبار والدهاقين ورجال الكهنوت الذى ينتسب زورا وبهتاناً إلى الدين المسيحى .

فى هذا العصر القديم الذى كان يعيشه - عليه أفضل الصلاة والسلام - هان كل شئ حتى لقد وثبتت امرأة من أرسفة القسطنطينية إلى الملك . ونقلت صناعاتها من الحانات إلى عرش الامبراطورية الرومانية . وحولت الكنائس إلى أوكار للمؤامرات والمذابح . وأشاعت فى كل مكان جوا من الفوضى والأنحلال . حيث تحولت الامبراطورية الشاخنة فى العالم القديم يوما إلى سوق واسع للرقيق الأبيض ... يحكمه النخاسون وتحول كل ما هو مقدس وكريم إلى مخدع للرديلة .

وما يحدث فى بلاد الروم كان يحدث أيضا فى بلاد فارس . حيث ظهرت مذاهب أخرى غريبة ، وتجردت الأساطير الدينية من روحها القديمة . وفقدت النار والظلمة معانيها الرمزية يوما بعد يوم منذ أصبح وكلاء الآلهة والأرباب هم ملاك الأرض والتجارة . وأصبح المتاع الحسى فوق كل إعتبار .

كان النبى الكريم يفكر فى كل ذلك ويتأمله ... ويأسى لما وصل إليه العالم القديم من فساد . حتى هذه القيم الروحية التى تزخر بها المسيحية ومن قبلها اليهودية ... لم تعد على حالها بعد . فقد تحولت هى الأخرى إلى عبادة للقديسين والشهداء . وتحولت سلطة الرب إلى القساوسة والكهان هم وحدهم الذين يفتحون أبواب الجنة وأبواب الجحيم ! حتى تحول الإعتراف الذى يكفر به الخاطئون والخطافات عن

الذنوب إلى طريقة لإبتزاز المال تحت ضغط التهديد بإذاعة أسرار الاعتراف . لقد كان هذا التلويح بالفضيحة هو أسلوب رجال الدين لإبتزاز المال أو لإجتناء المتاع .

هكذا كان الفساد يخيم على العالم القديم وليس في مكة وحدها أو في الجزيرة العربية وحدها . وقد رأى عليه الصلاة والسلام أو سمع ذلك كثيرا . فكان يتأمله ويفكر فيه وهو ماضى في طريقه إلى حيث معتزله في رمضان . ولا يوقفه إلا مكان بأعلى الجبل . خال من كل اسباب الحياة وجد فيه غارا داخل الجبل . فكون فراغا لا يتسع إلا له . وقد كونت صخرتان كبيرتان ما يشبه المدخل . هذا الغار هو مقصده حيث كان يعتزل ويتعبد ويواصل التأمل والتفكير . وهو الذى سجل التاريخ اسمه بأحرف من نور حيث عرفناه فيما بعد بغار حراء .

لكن ما هذا الذى يقطع عليه - ﷺ - تأمله وتفكيره وهو في طريقه من مكة إلى غار حراء ؟ إنه أمرا عجبا يصفه ابن هشام في سيرته بأنه ولا شك علامة من علامات النبوة فيقول « إن رسول الله ﷺ حين أراه الله سبحانه وتعالى بكرامته وأبتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجة أبعد حتى تحسر (أى ابتعد) ويفضى إلى شعاب مكة ويطون أوديتها فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . فيلتفت رسول ﷺ حوله ، وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء له أن يسمك ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه بعد ذلك من كرامة الله سبحانه وتعالى وهو بحراء في شهر رمضان » .

هذه واحدة من علامات النبوة . وأما الأخرى فهي حيث تسود الروح الجسد فيقرب صاحبها من السماء . على اعتبار أن الإنسان يتكون من روح وجسد . أما الروح فهي نفحه من الله عز وجل وأما الجسد فحفنة من تراب . فإذا ساد الجسد الروح اقترب الإنسان من التراب ، وإذا سادت الروح الجسد اقترب صاحبها من السماء . وها هو رسولنا الكريم قد طهر الله جسده من كل رجس ودنس ، وأبعد عن قلبه كل زيف وكذب ، وجرد نفسه من كل ريبة وشك . ولهذا فلا بد أن تسمو روحه جسده بل الأرض ومن عليها . ها هو - ﷺ - لا يهتم غذاء جسده بقدر ما يهتم غذاء روحه التي صفت وأمكنها أن تخلق فترى في منامها هذه الرؤى الصادقة .

نعم لقد رأى فيها ... كأن أصنام الكعبة تسقط ، ودولة الطغيان تتقوض بكل ترفها المستبد من أقصى بلاد الروم إلى آخر بلاد الفرس . وكأن الناس قد تحولوا إلى بشر آخرين ، لا يرفع أحدهم السيف في وجه أخيه . ولا تمتد بالعدوان على أحد . كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعا لا حصر لها من رجال شرفاء ، ونساء فضليات ، وأطفال سعداء . لم يعد الانسان مهذرا في كرامته ، ممزقا في كيانه . رأى وكأن هذا الجيل الذي يعيش فيه ، والذي يشرع ضروسه وأسنانه لأكل المساكين والفقراء تغير تماما ... وتخلت الذلة والهوان عن وجوه البسطاء والضعفاء .

رأى فيما رأى عليه الصلاة والسلام . أن أنوار الحقيقة التي تنشرها تنبلج أمام عينيه . لتحطم باطل هذه الحياة وزيفها . رأى نهاية لهذا

الضلال الذى يعيشه قومه وبداية للهدى والصلاح . رأى الحق واليقين يسيطران على قومه بعد أن افسدت حياتهم مذلة الخضوع للأوهام وما إليها من عقائد ليست إلا ضلالا . رأى بداية لعصر الإيمان بالواحد القهار ونهاية لعصر الكفر والشرك والوثنية . رأى كثيرا فيما كان يرى فى رؤاه وهى صادقة فهى علامة أخرى من علامات النبوة . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « إن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوة . حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به . الرؤيا الصادقة . لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ... » .

وتكرر فى نومه عليه الصلاة والسلام رؤاه . خصوصا إذا كان معتزلا متحنا متعبا فى رمضان حتى شارف الأربعين من العمر . وقد امتلأت نفسه إيمانا ، وقد خلصت تماما من الباطل ، وقد اتجه قلبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة ... اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدى قومه فإنهم لا يعلمون . وهو فى توجهه هذا ... يقوم الليل ، ويطيل الصوم ، وتثور به الأفكار والتأملات . فينحدر عليه الصلاة والسلام من أعلى الجبل إلى الأودية والشعاب . ثم يعود بعد ذلك ليختبر ما يدور بذهنه وما يتبين له من رؤاه . ولقد طالت به هذه الحال . حتى خشى على نفسه عاقبة أمره . وكثيرا ما كان يستظهر زوجته خديجة رضى الله عنها بما كان يرى أثناء نومه فى غار حراء . وأنه يخاف عبث الشياطين . إلا أن هذه الزوجة العظيمة طمئننته وذكرته بأنه الصادق الأمين . وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه . تقول له ذلك مهدئة إياه . ولكن لم يدر بخاطرها ولا حتى

بخطره عليه أفضل الصلاة والسلام أن الله سبحانه وتعالى . يهيبه
مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم . الذى فيه يحمل آخر
رسالات السماء .

وعاودته هذه الرؤى الصادقة فى كل رمضان من كل عام حتى
كانت ليلة مباركة فى العشر الأواخر من رمضان . فيها هبط ملك من
السماء فى يده صحيفة ويحدث ما يحدث . ليكون من بعد الرسول البشر
ولكن الذى يوحى إليه □

وحى

يوحى

اليه

وفي ليلة مباركة ... من الليالى العشرة الأخيرة من رمضان ... أغفى
عليه الصلاة والسلام قليلا فنام كعادته بغار حراء ... فرأى فيما رأى مَنْ
يعرض عليه صفحة ويطلب منه أن يقرأ . فقال له ما أنا بقارئ . ما قصة
ذلك ؟ . لترك النبى ﷺ يقول ما ينقله ابن هشام فى السيرة النبوية .

قال رسول الله ﷺ : « جاءني جبريل (عليه السلام) وأنا نائم ،
بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : إقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ؟ ، فغتنى
به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : إقرأ ، قلت : ماذا أقرأ ؟ فغتنى
به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني وقال : إقرأ ، قلت بماذا أقرأ ؟ ما أقول
ذلك إلا إفتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع لى . فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك
الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم
بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فقرأتها ثم انتهى فأنصرف عني .
وهبت من نومي . فكأنا كتبت فى قلبى كتابا . وخرجت حتى إذا كنت
فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول
الله ، وأنا جبريل . فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة
رجل صاف قدميه فى أفق السماء ويقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا
جبريل . فوقفت انظر إليه . فما تقدم وما تأخر ، وجعلت أصرف وجهى
عنه فى آفاق السماء . فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيت كذا . فما زلت
واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى .
فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك . ثم انصرف عني »
ويقول النبى ﷺ ما يسجله ابن هشام : « وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى
أتيت خديجة فجلست ... إليها . فقالت يا أبا القاسم : أين كنت ؟ فوالله
لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى . ثم حدثتها بالذى
رأيت . فقالت أبشر يا ابن العم وأثبت . فولدى نفس خديجة بيده إلى
لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

ويقول ابن إسحاق ما يسجله ابن هشام « ثم قامت - خديجة - فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمها . وكان قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع الكثير من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة بن نوفل : « قدوس ، قدوس (أى طاهر طاهر) والذي نفس ورقة بيده ، لئن صدقتينى ياخديجة لقد جاءه الناموس (أى الوحي) الذى كان يأتى موسى . وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بقول ورقة بن نوفل » .

ويقول ابن هشام : « فلما قضى رسول الله ﷺ حواره وانصرف . صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال له : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت . فأخبره رسول الله ﷺ . فقال ورقة بن نوفل : والذي نفسى بيده . أنك نبى هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى (عليه السلام) . ولتكذبه ، ولتؤذنه ، ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه . ثم أدنى رأسه منه . فقبَّلَ يافوخه (أى وسط رأسه) ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله » .

قال ابن إسحاق ما سجله بعد ذلك ابن هشام : أن خديجة رضى الله عنها قالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به . فجاءه جبريل (عليه السلام) كما كان يصنع . فقال رسول

الله ﷺ لخديجة : ياخديجة ، هذا جبريل قد جاءني . قالت : قم ياابن عم فاجلس على فخذي اليسرى . فقام رسول الله ﷺ فجلس ... قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت فتحول فأجلس على فخذي اليمنى . فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذه اليمنى . فقالت : هل تراه ؟ . قال : نعم ، قالت : فتحول فأجلس في حجرى : فتحول رسول الله ﷺ فجلس في حجرها قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها . ثم قالت : هل تراه ؟ قال رسول الله ﷺ : لا . قالت خديجة رضى الله عنها : ياابن عم : اثبت وأبشر ، فوالله إنه للملك وما هذا بشيطان ... » .

وهكذا يصف النبي ﷺ أول لحظة تنزلت عليه أولى آيات القرآن الكريم في صورة هذه الآيات الخمس . ونزول هذه الآيات الخمس على هذه الصورة يحسد لنا لقاء انتظم طبيعتين متغايرتين ، هما الطبيعة البشرية لسيدنا محمد ﷺ ، والطبيعة الملائكية لجبريل عليه السلام . لا ريب أن يكون له صداه في نفس رسولنا الكريم . ولعل ما بدا من هذا الصدى هو الرجفة والخوف . حتى أنه إذا جاء إلى زوجته إبتدراها مرتعدا وقائلا : زملوني . فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى . فلما ذهب عنه الروع نظر إلى زوجته نظرة العائذ المستنجد وقال : ياخديجة مالى . وأفضى إليها بمخاوفه . فكانت خديجة نعم الزوجة فلم تكتف بما أخبرها به ابن عمها ورقه بن نوفل وإنما قامت بإختبار ما سمعته من الرسول ﷺ . وهذا الإختبار - كما رأينا من حديث ابن هشام - غاية ما كان ينتظر من سيدة في عصرها أن

تمتحن به حقيقة الوحي : ولا غرابة فيه عند المسلم وغير المسلم في العصر الحاضر . فإن البديهة لا تشتغل بالوحي الدينى والنظر إلى جسد الأنثى في وقت واحد . ولاسيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة .

ثم إن هذا اللقاء الخالد والعظيم الذى انتظم طبيعتين متغايرتين إحداهما بشرية والأخرى ملائكية . ينبغى أن ندرك منه أن الرسول ﷺ بشر مثلنا . نعم بشر مثلنا . ولا يجول بخاطر أى منا خروجه عليه الصلاة والسلام عن البشرية . لكنه بشر يوحى إليه بنص الآية الكريمة : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى ﴾ .

وهذا هو الفارق بين بشريته عليه أفضل الصلاة والسلام وبشريتنا نحن . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا . ولكن سادت روحه جسده فأقترب من السماء . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكن هو قطعة من نور . صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكنه ما ينطق عن الهوى . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكنه مصطفى من رب العالمين ليرسله رحمة للناس كافة ، هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكن يخاطبه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكن يوحى إليه فى ليلة مباركة من ليالى رمضان .

ويتكرر نزول الوحي عليه . بآيات من الذكر الحكيم . وفى واحدة منها تعودده خديجة رضى الله عنها وهو - عليه الصلاة والسلام لا يزال نائما . وفيما هو فى هدأة نومه إذ به يهتز ويثقل تنفسه ، ويبلل العرق

جبينه ، ويقوم ليستمع إلى جبريل يوحى إليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ
وَرَبِّكَ فُكِّرْ وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ ﴾ .

وتراه زوجته بهذه الحالة ... فتشفق عليه وترجوه أن يعاود النوم
فيكون جوابه عليه أفضل الصلاة والسلام : « انقضى يا خديجة عهد النوم
والراحة فقد أمرني جبريل أن أقوم وأنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله
وعبادته » . ويتوالى نزول القرآن الكريم . بعد ذلك □

القرآن معجزته

ويتحقق ما كان قد تنبأ به ورقة بن نوفل . من أن زوج إبنة عمه هو بعينه نبي هذه الأمة .

وطبيعي أن تتوالى نزول سور القرآن الكريم ، وتستمر منذ بدأت في هذه الليلة المباركة من رمضان . فترة تقدر في حساب الزمن بثلاثة وعشرين عاما ، وأن تصوير كتابا مبينا هو دستورنا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ... كتابا يتضمن ١١٤ سورة ، تشتمل على ٦٢٢٦ آية

كريمة ، وتحوى آياته الكريمة ٧٧٤٣٩ حرفا . كل حرف فيه يحمل معنى عظيما ودلالة كبرى . بل وعطاء كريما . لكل جيل يختلف عن عطاءه للجيل السابق . ذلك هو القرآن الكريم . الذى جاء للعالم كافة وليس للعرب خاصة . فلم يقتصر على أمة بعينها وإنما هو لكل البشر . ولم يكن للعصر الذى نزل فيه أى عصر النبوة . وإنما لكل العصور وهذا هو سر إعجازه .

ولذلك فالقرآن على هذا النحو ... هو معجزة النبى ﷺ . أما كيف يكون ذلك ؟ للإجابة علينا أن نقرأ إلى جانب الكتب المهمة بالسيرة النبوية ثلاثة كتب هى « اعجاز القرآن » و « معجزة القرآن » و « القرآن فى شهر القرآن » الأول لكاتب كبير هو مصطفى صادق الرافعى ، والثانى لداعية ومفكر اسلامى كبير هو الشيخ محمد متولى الشعراوى - أطل الله فى عمره - ، والثالث للأمام الشيخ الدكتور محمد عبد الحليم محمود . وقد باعدت بين تأليف هذه الكتب الثلاثة السنين التى قد تصل فى بعض الأحيان إلى أكثر من النصف قرن . ولكن نظرة الجميع واحدة تؤكد أعجاز هذا الكتاب المبين فى كل عصر وفى كل زمان .

وقبل أن نتحدث عن اعجاز القرآن ومعجزات الرسل والأنبياء قبل النبى ﷺ وكيف كان القرآن معجزته . علينا أن نتعرف أولا على معنى المعجزة .

والمعجزة كما يرى الشيخ الشعراوى هى خرق لنواميس الكون ، أو لقوانين الطبيعة . يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه

ويثبتهم به . ويؤكد للناس أنهم رسله الذين تؤيدهم السماء وتنصرهم .
والسماء حين تنصر وتؤيد ، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل
شيئا .

ومعجزات الله تتميز عن أية معجزات أخرى تميزا واضحا قادرا
فهى أولا تأتى وتتحدى من أرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه . لماذا ؟ لأن
التحدى فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحديا . فمثلا إذا جئنا ببطل في
رفع الأثقال ، وتحدينا به رجلا عاديا لا يكون هناك مجال للتحدى . لماذا ؟
لأن المتحدى لم ينبغ في نفس جنس العمل الذى أريد أن يتم فيه التحدى .
ولكن إذا جئنا ببطلين من أبطال العالم فإن التحدى يكون بينهما واضحا .
ويكون له معنى فيمن يثبت أنه هو الأقوى وهو الأقدار .

على أن هذه المعجزة لا تأتى فقط بخرق القوانين الكونية ،
أو التحدى . وإنما توفر أسباب هذا التحدى . بمعنى أن القوم الذين يريد
الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم . يمكنهم من الأسباب كلها ثم بعد ذلك
يعطل الأسباب فلا يتم الفعل كما سترى حين يشرع الأنبياء والرسل بدعوة
أقوامهم . فتجد هذه الدعوة الاعراض والتكذيب . لاسيما حين تدعوهم
إلى ترك معتقداتهم التى وجدوا عليها أباءهم وأجدادهم . ولذلك كانت
الدعوة مهمة شاقة وأمرا عسيرا إذ كان لابد أن يقدم النبى أو الرسول
لقومه الدليل الكافى على أنه مبعوث من خالق السموات والأرض ومن
فيهما . وكانت هذه الأدلة لابد أن ترقى إلى درجة هذه المعجزات التى يخص
بها الله كل رسول أو نبى بحيث تكون من جنس ما اشتهر به قومه حتى

يمكن أن يعرضوا هذا الدليل على عقولهم ويقارنوا بين ما أتى به الرسول وما أتوا به هم .

لقد اشتهر قوم موسى . وكان عصره يسمى عصر السحرة وبلغ من سحرهم أنهم اجتمعوا لسيدنا موسى عليه السلام والقوا أمامه جبالا تُحِيل للناس أنها حيات تسعى . فلما ألقى عصاه إهتزت هي الأخرى وتحركت وابتلعت حبالهم . هنا جاء موسى عليه السلام بمعجزة هي من جنس ما نبعثوا فيه وهي السحر . بها تحدى قومه فكان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم لماذا ؟ لأنهم هم الذين يرهبون عيون الناس ويسحرونها . فلما رأوا معجزة موسى عليه السلام كانوا أقدر الناس على فهمها والسجود لها نظرا لما رأوه من الفرق الهائل بين قدرة الله وقدره البشر بنص الآية : ﴿ فالتقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ .

وأشتهر عصر السيد المسيح عليه السلام بتقدم الطب . فما من جماعة تجتمع إلا وحديثها يكون عن الطب . ولذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام هي من جنس ما يتقنه قومه وينبعثوا فيه كأن يبرئ الأكمه ، والأبرص ويرد البصر للأعمى بإذن الله . بل استطاع أن يحيى - بإذن الله - الموتى ولهذا آمن به قومه لأنه استطاع أن يفعل ما لا يستطيعون هم فعله بأمر الله .

ومن قبل موسى وعيسى عليهما السلام أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام . حقق معجزة أيضا . وذلك حين إجتمع عليه قومه وأوقدوا نارا ليحرقوه . وبالفعل أتوا به وألقوه فيها أمام آلهتهم . كان يمكن أن يختفى

إبراهيم ، أو النار تنطفئ قبل أن يلقوه . إلا أنه لم يحدث هذا ولا ذاك .
القوا به وإذا النار تزداد اشتعالا . لكن الخالق عز وجل يبطل مفعوها .
لتكون بردا وسلاما . وليكون ما يحدث معجزة من إبراهيم عليه السلام
لقومه فيؤمنوا به .

ومن بعدهم جميعا جاء محمد ﷺ ليكون للبشر كافة . وعلى هذا
فلا بد أن يكون إعجازه أولا من جنس ما نبغ فيه قومه وثانيا أن يكون
القرآن الذى أتى به متخطيا زمانه ومكانه .

فالقوم الذى نزل فيهم القرآن . بلغ أفراداه مبلغا من الفصاحة ما لم
يعرف فى تاريخهم من قبل . كانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه . حتى كان
من بينهم شعراء الواحد منهم يماثل عصرا بأكمله ثم كان لهم من تهذيب
اللغة بشكل جعل الكلمة نافذة فى كل بقاع الجزيرة لا يصدها اختلاف
من اللسان ولا يعترضها تناكر فى اللغة . فقامت منهم بذلك دولة
الكلمة . ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن ليكون ملكها على
مر الزمان وكأن العرب بأدبهم وفصاحتهم كانوا يعدون أنفسهم للقاء هذا
الكتاب المبين . أو كما عبر الرافعى قائلا : « كل من يبحث فى تاريخ
العرب وآدابهم ، وينفذ إلى ذلك من حيث تنفذ به الفطنة ، وتتأق حكمة
الأشياء فإنه يرى كل ما سبق القرآن إنما كان توطيدا له وتهيئة لظهوره
وليس فى الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل الجزيرة العربية » .

إذن لقد ملك القرآن سر الفصاحة العربية ، وجاءهم منها بما
لا قبل لهم برده . ولا حيلة لهم معه . فاستبد بإرادتهم وغلب على طباعهم

وحال بينهم وبين ما نزعوا اليه من خلاف . حتى انعقدت قلوبهم عليه وهم يجهدون في نقضها ، واستقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها . فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهوا إلا اليه . إذ يرونه قد أخذ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات النفس العربية .

ولو أن هذا القرآن غير فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة في اساليبها التي القيت اليهم . لما نال منهم على الدهر منالا . ولخلا منه موضعه الذي هو فيه . ثم لكانت سبيله بينهم هو نفس سبيل القصاص والخطب والاقاصيص . وإذا لم يكن القرآن موجود فيهم بأكثر معانيه قبل أن يوجد فيهم بألفاظه واساليبه لنقضوه كلمة كلمة وآية آية . دون أن تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعهم ولكان لهم وله شأن غير ما عرف . ولكن الله بالغ أمره . وكان أمر الله قدرا مقدورا .

* * *

ولكى يتخطى القرآن في معانيه زمانه ومكانه لابد أن يختلف عن غيره من المعجزات . وفي القرآن إعجاز لا يتنبه اليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه إعجاز أخرى أو جديدة تزيد في معنى الإعجاز ، أو تعطى أبعادا جديدة لما يقال .

إن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق ذلك أن القرآن للعالمين . ومن هنا يجب أن يكون له عطاء لكل جيل . وإلا لو أفرغ القرآن عطائه الإعجازي في قرن من الزمان . لأستقبل القرون الأخرى بلا عطاء . إن هناك آيات من القرآن تعطينا عمقا جديدا

في معناها ذلك العمق لم يكن أحد يصل اليه بالفهم الدقيق في أول نزول القرآن .

معجزة أخرى للقرآن هو أنه يعطى لكل عقل قدر حاجته . فترى غير المتعلم يطرب للقرآن ويجد فيه ما يرضيه . ونصف المتعلم يجد في القرآن ما يرضيه . والمتبحر في العلم يجد في القرآن ما يرضيه ويحرك تفكيره .

ومعجزات أخرى من مجموعها يكون ذلك الكتاب معجزة بها يواجهه النبي الكريم قومه وزمانه وغير قومه وما بعد زمانه □

وفاة أم أولاده

وفي رمضان السنة العاشرة للبعثة المحمدية ... ماتت خديجة بنت
خويلد رضى الله عنها وزوجة النبي ﷺ وأم أولاده . وأم المؤمنين كما يعرف
التاريخ الإسلامى . ماتت خديجة رضى الله عنها بعد أن جاهدت
زوجها النبي عشر سنوات كان آخرها فى الحصار والتى تركت آثاره
السيئة على صحتها . فلم تلبث طويلا بعد عودتها إلى بيتها حتى توفاه الله
قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات .

وما أعظم هذه الزوجة حين وقفت إلى جوار زوجها العظيم تتحلم

معه بمفردها أعباء هذه الرسالة مثبتة إياه ، مؤمنة به وبرسالته حتى في هذه الساعات التي صاحبت نزول الوحي لأول مرة . كانت تطمئنه وهو يقول لها : « لقد خشيت على نفسي » فيسمع عليه أفضل الصلاة والسلام منها هذه الكلمة الخالدة : « والله لا يخزيك الله أبدا . أنك لتصل الرحم ، وتصديق الحديث وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وما أعظم ذكاء هذه الزوجة حين كانت تخفف عن النبي ﷺ أعباء الوحي . وكأنها أدركت بفطرتها حقيقة الدين . فعلمت أنه فضيلة . فقامت كما رأينا بإختبار الوحي كما هداها إلى ذلك تفكيرها . ولتقول للنبي ﷺ عن جبريل عليه السلام « يا ابن عم . اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان » .

وما أروع هذه الزوجة الحنون . التي عز عليها أن توقظ زوجها النبي ﷺ لتبشره بما قاله ابن عمها ورقه بن نوفل بأنه نبي هذه الأمة – فتجلس بالقرب من فراشه عليه أفضل الصلاة والسلام . منتظرة حتى يستيقظ من نومه . لكنها تلحظ أمرا آخر . فالنبي أمامها ينتفض في فراشه ، وتتأفلق أنفاسه ، ويتفصد العرق جبهته ويظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته وتنظم أنفاسه ويبدو عليه كأنما يصغى إلى درس يستعيده حتى يستيقظ بعد أن يكون قد فرغ من لقاء جبريل عليه السلام . وهنا تزف إليه البشرى التي سمعتها من ابن عمها ورقه بن نوفل فيزني إليها النبي ﷺ بنظرة تفيض شكرا وإمتنانا لهذه الزوجة التي ملأت دنياه أمنا وسلاما وحنانا ثم ينظر إلى فراشه ويقول متأثرا : انتهى ياخذحجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأن ادعوهم إلى الله وإلى عبادته . فمن

ذا أدعو وَمَنْ ذا يستجيب ؟ وكانت أول مَنْ آمَنَ بِمحمد ﷺ من النساء فهتفت خديجة رضى الله عنها في إيمان مطلق : « أنا أستجيب يا محمد . فأدعنى قبل أن تدعو أى إنسان ، وإلى المسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك » .

وما أسمى مكانة هذه الزوجة التى يقرئها جبريل السلام فكما يحدثنا ابن هشام فى السيرة النبوية يقول : « إن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ : فقال اقراء خديجة السلام من ربها . فقال رسول الله ﷺ : ياخديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك فقالت خديجة رضى الله عنها : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » .

وما أصدق إيمان هذه الزوجة العظيمة حين فقدت وليدها الذى لم يستكمل رضاعته . فقال لها النبى ﷺ مهدئا إياها : إن له مرضعا فى الجنة . فقالت : لو أعلم ذلك لهون على . فقال النبى ﷺ : إن شئت اسمعتك صوته فى الجنة فقالت : بل أصدق الله ورسوله » .

وما أكرم هذه الزوجة العظيمة حين تتحدث عنها بديلتها ومن احتلت مكانا لها فى بيت النبوة وهى عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما حيث تقول : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة (رضى الله عنها) فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام فأدركتنى الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزا . فقد أبدلك الله خيرا منها . فغضب رسول الله ﷺ حتى إهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها . آمنت بى إذ كفر الناس ،

وصدقني إذ كذبنى الناس ، وواستنى في مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمنى أولاد النساء » قالت عائشة رضى الله عنها : فقلت في نفسى ألا أذكرها بسيئة أبدا .

وها هو محمد ﷺ الزوج الكريم يتلفت حوله بعد رحيلها . فإذا الدار موحشة خلاء ، وإذا مكة تنبو به وإذا الأرض كلها وقد ضاقت من كل حذب وصوب . .

ها هو النبى عليه أفضل الصلاة والسلام تبلغ به متاعبه أقسى مداها فى عام موت خديجة رضى الله عنها الذى سمي بعام الحزن . اشارة إلى موتها وموت عمه أبو طالب . حتى خيل اليه وإلى من حوله بل وخيلت إلى اعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله ، فما عاد ييدو على الأفق شعاع من ضياء . إلا أن أمانهم كذبتهم فظنوا به الظنون .

ها هو النبى ﷺ وقد فرغ منذ قليل من دفن الزوجة الحبيبة أم أولاده بعد رقاد لم يدم طويلا . لم يفارقها فيه لحظة من ليل أو من نهار إلى أن اسلمت روحها إلى بارئها .

منذ قليل جهزت خديجة رضى الله عنها . فحمل المسلمون نعشها وساروا به فى الطريق الذى طالما قطعتة أم المؤمنين فى جاهليتها وفى اسلامها . ومن حولها إماؤها إلى الحرم وكان وجوه قريش وسادات مكة من مسلمين وكافرين يسرون وراء نعشها مطرق الرؤوس ، يسرون فى هدوء . وقد غمرتهم الاحزان فمنذ ثلاثة أيام قبرا أبا طالب . وها هم ينطلقون اليوم لقبر أم المؤمنين .

وسار الجمع إلى الجحون - حيث تدفن - زوجه رسول الله وقد ثارت العواطف في الأفئدة . وكان رسول الله ﷺ الذى الف الله به إخوانا ، وفرق أقرانا . وأعز به الذلة ، وأذل به العزة يسير في مقدمة السائرين مستشعرا كأنما يودع قطعة عزيزة من نفسه . أو جزءا أصيلا من سويداء قلبه .

وفى الجانب الآخر كانت جموع المسلمين تسير بقلوب باكية . للراحلة الكثير من الأفضال على الجميع .

وأمام القبر اشتد النحيب حتى تجاوزت جبال مكة التى تطل على الجحون . والتف المسلمون برسول الله ﷺ وهم يذرفون الدمع . وعندما دلى الجسد الطاهر قبره جزع المسلمون لرؤية نبيهم الكريم وقد خنقته عبراته . وبين غمضة عين وانتباهتها غيبت فى الثرى أول من أشرق قلبها بنور اليقين بعد رسول الله ﷺ .

ها هو النبي ﷺ وقد عاد لتوه من مدافن الجحون ينظر فى كل أركان هذا البيت الذى تأسس على الصدق والوفاء والاخلاص وإنكار الذات والتضحية وكل ما هو جميل فى الحياة ... ينظر لعله يجد رفيقة حياته خديجة رضى الله عنها . التى خطفها الموت من امامه منذ قليل . نعم الموت . وهل هناك غير الموت ما يمكن أن يفرق بينهما . فتركه بلا نصير يلاطم أمواج الحياة وحده . وحانت من الرسول التفاتة إلى ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها . فأحس كأن كبده تكاد أن تنفطر وزاد من كربه أنه فطن إلى أن إبنته الحبيبة الرقيقة قد عرفت الموت فى وجه أمها . فراحت تغالب دموعها حتى لا تؤذى ببكائها من كانت تغمرها بالحب والحنان .

أفى عام واحد بل فى ثلاثة أيام أى فى ساعات يفقد عمه أبو طالب وزوجته خديجة رضى الله عنها ؟ أيفقد فى ساعات الحماية والرعاية . صحيح إن موت أى طالب كان فاجعة لكن موت خديجة فهو كارثة . نعم كارثة تجرح قلبه جرحا لن يندمل . وشر رسول الله ﷺ ، وفى وجهه أعمق الاسى وراح يقلب صفحات الماضى فى وجد وقد غلبته رفته فترقرقت الدموع فى عينيه .

~ * ~

هكذا ماتت خديجة رضى الله عنها . إلا أنها مازالت ماثلة أمام عينى زوجها الرسول ﷺ . ماتت وسيدخل بعدها بيت النبوة نساء أخريات . إلا أن مكانها من قلب صاحب البيت النبى ﷺ سيظل أبدا خالصا لهذه الزوجة الأولى . التى انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان كانت توليه فيها من عطفها وبرها . ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها . وتقف إلى جانب زوجها النبى ﷺ تنصره وتشد ازره ، وتعينه على احتمال أقصى ضروب الأذى وأقصى أنواع العذاب □

جبريل يعلمه الصلاة

وتتوالى نزول آيات القرآن الكريم ، على النبي ﷺ . وتبدو معالم المجتمع الإسلامي الجديد القائم على الإيمان بالله الواحد ، ورسوله عليه الصلاة والسلام . ويحيى رمضان ويمضي عام بعد عام قبل الهجرة حاملا معه أحداثا جديدة من بينها بدء المسلمين في تأدية الصلاة ركعتين ركعتين . فالصلاة أول ما بدأت كانت هكذا . حتى تثقروا الفريضة على النحو المعروف الآن في الصلوات الخمس . التي تقرر بعد ذلك في ليلة اسراء والمعراج قبل الهجرة بعام .

ويقول ابن إسحاق عن هذه الصلاة الأولى التى بدأت - فى رمضان - ركعتين ركعتين . ما يسجله بعد ذلك ابن هشام فى السيرة النبوية : « عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت إفترضت الصلاة على رسول الله ﷺ ركعتين ركعتين . ثم إن الله تعالى أتمها فى الحضر أربعاً . وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين » .

وعلق السهيلي على ذلك قائلا : « إن الصلاة قبل الإسرائ كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة بعد طلوعها . ويشهد لهذا قوله سبحانه وتعالى ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والأبكار ﴾ » .

وأتفق مع رأى السهيلي رأى يحيى بن سلام حيث قال : « كان الإسرائ وفرض الصلوات الخمس . قبل الهجرة بعام . فعلى هذا يحتمل قول السيدة عائشة رضى الله عنها (فزيد فى صلاة الحضر) أى زيد فى الصلاة ركعتين ركعتين حين اكملت خمسا على النحو الذى رأينا . فتكون الزيادة فى الركعات وفى عدد الصلوات ... ويكون قولها رضى الله عنها « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين أى قبل الإسرائ » .

وقد قال بهذا أيضا طائفة من السلف الصالح منهم ابن عباس رضى الله عنه حيث قال : « ويجوز أن يكون معنى قول السيدة عائشة رضى الله عنها (فرضت الصلاة) أى ليلة الإسرائ حين فرضت الخمس فرضت ركعتين ركعتين ثم زيدت فى صلاة الحضر بعد ذلك . وهذا هو المروى عن بعض رواة الحديث عن السيدة عائشة رضى الله عنها » .

ومن رواه عن السيدة عائشة أيضا الحسن والشعبي بأن : « الزيادة في صلاة الحضر كانت بعد الهجرة بعام أو نحوه ... » .

وقد ذكره البخارى عن رواية معمر ، عن الزهرى ، عن ابن الزبير عن عائشة قالت : « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ففرضت أربعاً » .

وهنا يطال سؤال : « أهذه الزيادة في الصلاة نسخ (أى رفع الحكم) أم لا ؟ فيقال : أما زيادة ركعتين أو ركعة إلى ما قبلها من الركوع حتى تكون صلاة واحدة فنسخ وقد إرتفع حكم الإجزاء من الركعتين ، وصار مَنْ سَلَّمَ منهما عامداً أفسدهما . وإن أراد أن يتم صلاته بعدما سلم . وتحدث عامداً لم يجزه . إلا أن يستأنف الصلاة من أولها . فقد ارتفع حكم الإجزاء بالنسخ وأما الزيادة في عدد الصلوات حين اكملت خمسا بعدما كانت إثنين . فيسمى نسخا على مذهب ابى حنيفة . فإن الزيادة عنده على النص نسخ . وعند جمهور المتكلمين ليس بنسخ » .

لكن كيف تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة ؟ يسجل ابن هشام ما رواه ابن اسحق حيث قال : « وحدثني بعض أهل العلم . أن الصلاة حين افرضت على رسول الله ﷺ . أتاه جبريل عليه السلام ، وقد كان عليه والصلاة والسلام بأعلى مكة . فهمز له بعقبه في ناحية الوادى . فأنفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل عليه السلام ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل عليه السلام يتوضأ . ثم قام به جبريل

فصلى به ، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام . ويكمل ابن هشام ما رواه ابن اسحاق فيقول : « فجاء رسول الله ﷺ خديجة رضى الله عنها . فتوضأ لها ليربها كيف الطهور للصلاة ، كما أراه جبريل عليه السلام . فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصلت صلاته .

وعن الوضوء قال زيد بن حارثة : « أن رسول الله ﷺ ، أول ما أوحى إليه ، أتاه جبريل عليه السلام فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه عليه الصلاة والسلام » .

لكن حين فرضت الصلاة في ليلة الاسراء والمعراج كصلوات خمس على النحو الذى نعرفه الآن من أى هذه الأوقات بدأ تعليم جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم بعد إقرار هذا الفرض ؟

عن ابن عباس رضى الله عنه ننقل روايتين إحداهما يسجلها ابن هشام في السيرة النبوية والأخرى يسجلها الإمام الشافعى في كتابه الأم . وتتفق الروايتان في أن الصلاة بدىء تعليمها بالتحديد عند صلاة الظهر . إلا أن الإمام الشافعى في نقله عن ابن عباس رضى الله عنه يشير إلى أن تعليم الصلاة على النحو الذى نعرفه اليوم حدث في رمضان . ولننقل الروايتين معا .

في السيرة النبوية لابن هشام . عن ابن عباس قال : « لما إفتقرت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فصلى به (الظهر)

حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء حين ذهب الشفق . ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر ، ثم جاءه فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالامس ، ثم صلى به العشاء حين ذهب ثلث الليل الأول . ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق ، ثم قال : « يا محمد الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس » .

وفي كتاب الأم للإمام الشافعي عن ابن عباس قال : أن رسول الله ﷺ قال : « أُمْنِي جبريل على باب الكعبة مرتين . فصلى الظهر حين كان الفء مثل الشراك ، ثم صلى العصر حين كان كل شيء بقدر ظله ، وصلى المغرب حين أفطر الصائم ، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم صلى الصبح حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، ثم صلى المرة الآخرة الظهر حين كان كل شيء قدر ظله ، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه ، ثم صلى المغرب القدر الأول لم يؤخرها . ثم صلى العشاء الآخرة . حين ذهب ثلث الليل ، ثم صلى الصبح حين أسفر ثم التفت فقال : يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك فيما بين هذين الوقتين » .

ومن نقل الروايتين عن ابن عباس نعرف مواعيد الصلاة على زمن الرسول الله عليه الصلاة والسلام فالظهر عندما يكون ظل كل شيء مثله ، والعصر عندما يكون ظل كل شيء مثليه ، والمغرب عندما تغيب الشمس ويفطر

الصائم والعشاء حين يغيب الشفق في الثلث الأول من الليل ، والصبح حين يكون مسفرا غير مشرق بعد الفجر ، بعد إمتناع الصائم عن الطعام والشراب .

ويجب أن نعلم أن أولية الصلاة في وقت الظهر لا تعنى فضلا لهذا الوقت على غيره .

كذلك يجب أن نعلم أيضا أن تحديد أول صلاة أم فيها جبريل النبي ﷺ يدل على حرص كامل من النبي ﷺ في تسجيل هذا الركن العظيم من أركان الإسلام . وبيان التوجيه الالهى والعناية الكريمة بهذا الركن . حيث فرض من أرفع مكان ليلة الاسراء والمعراج ، في أرفع موقف للرسول ﷺ . وتولى جبريل عليه السلام تدريب وتعليم الرسول بهياته وأوقاته وكيفية إعداد المسلم لأدائه متطهرا .

وعن قيام صلاة التراويح في رمضان روى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته الناس ، ثم صلى من القابلة (أى الليلة التالية) فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة والرابعة حتى غص المسجد بهم . فلم يخرج اليهم رسول الله ﷺ . فلما أصبح قال : قد رأيت الذى صنعتم ولم يمنعنى من الخروج اليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم . . ولهذا تعتبر صلاة التراويح سنة حتى وفاة الرسول ﷺ ثم كانت هكذا في خلافة أبى بكر وصدر خلافة عمر رضى الله عنهما . حيث روى البخارى عن عبد الرحمن القارى أنه قال : « خرجت مع عمر رضى الله عنه ليلة في رمضان إلى

المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي بصلاته
 الرهط . فقال عمر إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان
 أمثل . ثم عزم فجمعهم على (أبي بن كعب) . ثم خرج ليلة أخرى
 والناس يصلون لصلاة قارئهم فقال عمر : « نعمت البدعة هذه » ومن
 يومها وصلاة التراويح قائمة في رمضان □

صومه فى عام القتال

وفى يثرب معقل الإسلام وشوكته ، وبالتحديد فى العام الثانى للهجرة ، وهو فى التاريخ الإسلامى عام القتال . وفى فترة سكن فيها المسلمون إلى دينهم بعد عام مضى هو فى التاريخ الإسلامى عام الإذن بالهجرة إلى يثرب أو المدينة . بحلول العام الثانى وبالتحديد فى الثلاثين من شعبان يصبح الصوم فريضة اسلامية لها قواعدها ولها أحكامها . وليس كما كان من قبل ، ميراثا عن الأجداد ، أو نوعا من الوجاهة الإجتماعية التى

كان يمارسها سادة العرب وفتيان قريش الأقوياء . في هذا العام - وهو عام القتال - كما سنرى بعد قليل ، يتقرر الصوم كفريضة شأنه شأن الصلاة من قبل . أو كما روى ابن سعد في طبقاته الكبرى بسنده عن ابن سعيد الخدري رضى الله عنه قال : « نزل فرض شهر رمضان ، بعدما صرفت القبله إلى الكعبة بشهر في آخر شعبان ، على رأس ثمانية عشر من هجرة رسول الله ﷺ » .

وهكذا أصبح الصوم فريضة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع .
فأما الكتاب : فقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ .

وأما السنة : فقول سيدنا رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ . شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ ، وَحُجِّ الْبَيْتِ » .

وفي حديث طلحة بن عبيد الله أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال : « يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : شَهْرُ رَمَضَانَ . قَالَ السَّائِلُ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَلَا أَنْ تَطُوعٌ » إشارة إلى أن صيام رمضان فريضة واجبة في السنة .

والسنة : فقد أجمعت على وجوب صيام رمضان ، وأنه أحد أركان الإسلام الخمسة ، التي عُلمت من الدين بالضرورة ، وأن منكركه كشهر للصيام كافر مرتد عن الإسلام .

فقول الله سبحانه وتعالى في شهر رمضان : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ . تأكيد من الله عز وجل بمنزلة هذا الشهر حيث أنزل فيه القرآن ، وأن هذا الكتاب انزل هدى للناس . والهداية هى نعمة الله تعالى التى أنعم بها على عباده ، وهذه النعمة تقتضى الشكر ، ويتمثل الشكر على الهداية فى عبادة تزكى النفس ، وتسمو بالروح ، وتستغرق الشهر كله ، هذه العبادة هى الصوم الذى يثمر التقوى .

ويقول الله تعالى عن ذلك : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ فصوم هذا الشهر الذى أنزل فيه القرآن إنما هو شكر على العبادة ، وهذا الشكر ليثمر التقوى ، والتقوى ثمر رعاية الله للمتقى فى كل ضيق كما يقول سبحانه وتعالى ﴿ ومن يتقى الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

وقول الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ يقدم لنا الحكمة الأولى من الصيام . فإذا ما وُطن الإنسان نفسه على الصلاح والخير بعد أن مهد له الصوم إلى ذلك . وأعدّه ليسير فى سهولة ويسر فقد فاز بثمرة الصوم وهى التقوى . والتقوى هى تجنب المعصية الكبرى التى لا يغفرها الله وهى الشرك به سبحانه

وتعالى وكذلك تجنب مادونها من المعاصي ، هذا إلى جانب القيام بكل واجب يفترضه الله سبحانه .

وتأتى الحكمة الثانية التى من أجلها فرض الله سبحانه وتعالى الصوم والتى نلتمسها من قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فقد أمر الله بالصوم بعد أن ذكر أن هذا الشهر نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة فى القرآن . فكان لابد أن نحتفل به . والأحتفال بشيء ما ، إنما يكون بما يناسبه . فالاحتفال بالهداية ممثلة فى القرآن إنما يكون بما يعد النفس ويمهدا لإستقبال هذه الهداية على خير ما ينبغى . وذلك هو الصوم فكأننا بالصوم إيماناً وإحتساباً نصل إلى مستويات من شفاافية النفس وتطهيرها وتركيتها .

وأما الحكمة الثالثة لفريضة الصوم فهى كما يرى الأمام عبد الحليم محمود فإننا نلتمسها فى قوله تعالى محتتما بعض آيات الصوم : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ فقد فرض الصوم لنتبى منه ونحن فى رحاب الله مغتبطين متبشرين ... قد تركت عنا النفوس ، وتطهرت منا الأفتدة . فترتب على ذلك أن نكبر الله ونحمده على هدايته السماوية أولاً . وعلى توفيقه لنا بإتمام الصوم ثانياً . ونشكره على كل ذلك فيزيدنا سبحانه بهذا الشكر هداية وتوفيقاً .

ومن هذا كله يمكن أن ننبه إلى أمرين يتسم بهما الصوم . وهما قوة الإرادة ، وصرامة العزيمة . حتى يستقيم للمسلم بعد ذلك التحكم فى

نفسه راغباً بها في تحصيل رضا الله وتجنب سخطه . وهي مسألة ، تعود ثمرتها على الفرد كما تعود على الجماعة إن هذه الفريضة التي تشرع الصوم للغنى والفقير هي من أحق الفرائض بالاعتبار والاعتقاد . حتى إن البعض يذهب إلى القول : إن الصوم طريق يشعر منه الأغنياء بحاجة الفقراء ، ويقول البعض الآخر : أنه تكفير عن الخطايا لعقاب الأجسام حتى تعاني ما تعاني من الجوع والظمأ . ويقول الثالث : إن الصوم تطهير للجسم وتنزيه للإنسان عن تحكم حاجاته الحيوانية من الطعام والشراب .

وهل هناك حكمة أجل وأنفع لهؤلاء المسلمين الأوائل المقبلين على إقامة مجتمع جديد في قلب الجزيرة العربية في نفس العام . من حكمة الصوم الجماعية التي تيسر للمسلمين في كل مكان أن يتحولوا في شهر رمضان إلى أسرة واحدة يتناولون طعامهم في وقت واحد ، ويمسكون عنه في وقت واحد ، ويؤدون شعائرهم الرمضانية في وقت واحد .

إن هذه ملاحظة ، يدركها كل مَنْ تأمل أحداث العام الثاني للهجرة ، وعلى وجه الخصوص ما تم في الشهر نفسه في السابع عشر حيث كانت المواجهة الكبرى بين المسلمين والمشركين في معركة بدر . لذلك حق لرمضان دون غيره أن يحظى بفضل كبير يردده نبينا ﷺ في حديث قدسى : « قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزي عنه » .

وقد عبّر سيدنا رسول الله ﷺ فيما كان يخطب به المسلمين عندما أهل عليهم هذا الشهر المبارك في آخر يوم من شعبان حيث قال :

« يأيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة ، وقيامه تطوعا . من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه . ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه . وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزداد رزق المؤمن فيه ، مَنْ فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبة من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء .

قال المسلمون يارسول الله : ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم .

قال الرسول ﷺ : « يعطى الله وهذا الثواب من فطر صائما على تمر ، أو على شربة ماء ، أو مذقة لبن . وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، مَنْ خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار فأستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء بكم عنهما .

فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه . وأما الخصلتان اللتان لا غناء عنهما فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار . ومن سقى صائما سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة ... » .

وعلى هذا فرض صوم رمضان ، وأصبحت له أحكامه ومنها رؤية هلاله ، وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ يتشدد في إثبات هذه الرؤية .

فمن هديه كما يذكر الإمام ابن القيم : « أن الرسول ﷺ كان لا يدخل في صوم رمضان إلا برؤية محققة بشهادة شاهد كما صام بشهادة ابن عمر رضى الله عنهما . أو بشهادة اعرابي جاء الرسول ﷺ وذكر أنه رأى هلال رمضان فقال النبي : « أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؟ قال الاعرابي : نعم . فأمر النبي ﷺ بلالا فنادى في الناس : صوموا . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « صوموا لرؤيته . فإن غم عليكم فقدروا ثلاثين يوما ثم صوموا . ولا تصوموا قبله يوما » .
 وهكذا كان الصوم في عام القتال □

فى بيته الإنسان والمعلم

هذا البيت الكريم فى معناه ، المتواضع فى شكله ... شهد فى رمضان بعد الهجرة أحداثا جلية وكبيرة . منها السعيدة المفرحة ، ومنها الاليمة المحزنة . فهذا البيت الذى لا تزيد حجراته عن الأربع . واحدة للنبي ﷺ وزوجته رضوان الله عليها . والثانية لولده رضوان الله عليهن ، والثالثة لتعبده وتهجده واستقبال وحى ربه سبحانه وتعالى والرابعة للقاء صحابته عليهم رضوان الله . وأن هذه الحجرات - كما تحدثنا الكتب قديمها

وحديثها - من الطين اللبن وبعض الأحجار وأن تأسيسه كما يصفه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « كان غاية في التقشف . فهذا التأسيس يدخله القش والليف والحصر وسعف النخيل ... » هذا البيت لو شاء صاحبه ﷺ أن يجعل جدرانه من الماس والذهب والفضة ، وتأسيسه من الخز والحريز ... لثم له ذلك بأمر الله . هذا البيت على تواضعه وبساطته شاء ربك العلى القدير أن يشهد في هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم ... أحداثا ورجالا وأعمالا ومواقفا . منها جميعا قامت خير أمة أخرجت للناس .

فمن الأحداث السارة التى شهدها هذا البيت في رمضان إنتصار الحق على الباطل في بدر الكبرى . ولابد أن أهل هذا البيت قد سمعوا بمقتل رأس الشرك أبى جهل ، وأخيه العاص . وفي هذا البيت أيضا علت صرخات طفل ولد ليموت مسموما هو الحسن بن على وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم . ولابد أن هذا البيت وأهله قد شهدوا استعداد الرسول ﷺ لمواجهة هرقل قيصر الروم في تبوك . ولعل جدران هذا البيت المتداعية غدت كما الحصون لتسد عن صاحبه النبی ﷺ الأذى والشروع من اليهود والمشرکین ممن يريدون الخلاص من هذا الذى بعث رحمة للعالمين . ولابد أن هذا البيت قد سمع بيوم الفتح العظيم ودخول الناس في دين الله أفواجا . وخبر مبايعة المسلمين لرسول الله ﷺ حين جاءوا في رمضان . وأقاموا بجواره أياما ولابد أنه شاهد من هؤلاء من جاء يريد الشر بالرسول الأعظم فعاد إلى قومه وقلبه يمتلىء بالخير والإيمان .

ومع الأحداث السارة السعيدة كانت أيضا أحداث محزنة اليمة نعم
لقد شهد هذا البيت النبوى أحداثا محزنة واليمة . فهذا نبأ وفاة ذات
الهجرتين رقية إبنة الرسول ﷺ وزوجة عثمان بن عفان رضى الله عنه ...
تموت فى هذا البيت دون أن ترى أبيها ﷺ الذى كان بعيدا عن البيت فى
واحدة من الغزوات . كما سمع أهل هذا البيت باستشهاد الحمزة عم
الرسول ﷺ فى إحدى الغزوات وكما كان وقع استشهاد الحمزة على البيت
ومن فيه . فقد أعز الإسلام وناصره وأيده . فى وقت اجتمع زعماء الكفر
والشرك على خزلانه وكذا استشهاد أربعة عشر صحابيا جليلا فى أوائل
غزوات المسلمين الكبرى وهى غزوة بدر . وفى هذا البيت توفيت فى
رمضان واحدة من أمهات المؤمنين هى زينب بنت حذيفة زوجة رسول الله
ﷺ وأم المساكين كما ينعتها التاريخ الإسلامى . وفيه أيضا كانت وفاة
إبراهيم ابن رسول الله ﷺ . ولابد أن جدرانه قد تأست وحزنت لحزن
حبيب الله يوم بكى قلبه قبل عينيه على فراق هذا الإبن وقال قولته
المشهورة : « ولكن لا نفعل ما يغضب الرب » . وأحداث أخرى تمت على
مدى العشر سنوات التى قضاها الرسول الكريم إلى أن رفع إلى الرفيق الأعلى .

تمر هذه الأحداث بحلوها ومرها على هذا البيت الكريم . كما تمر أيام
وليالى رمضان ... فيها نسجل - قدر الامكان - بعضا من هديه وتعاليمه
وأقواله وتعبدته فى هذا الشهر المعظم أيام وليالى رمضان فى هذا البيت الكريم
تبدأ حيث ثبوت الرؤية . وهذا نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه يستقبل أولى
هذه الليالى بالبشر والترحاب ، ويدعو المؤمنين لإستقباله والتهنئة بحلوله .

وتصطبغ الليلة الأولى السابقة على بداية صوم رمضان بملاح هذا الشهر الفضيل . فكثيرا ما لاحظ أهل هذا البيت وصحابة رسول الله ﷺ أن النبي الكريم كان يخص هذا الشهر بمزيد من التعبد والدعاء والذكر . وفي ذلك يقول ابن عباس رضى الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل في رمضان يتعهد قائلا اللهم لك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد وأنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ... اللهم لك اسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ... فأغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت . وأنت المقدم والمؤخر ... لا اله إلا أنت ، ولا اله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وفي ليالى رمضان يستحب المزيد من الصلاة في كل بيت . وأما عن بيت النبوة فقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن ذلك فقالت : « ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة . يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعا أخرى فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن » ولعل النبي ﷺ كان يصنع ذلك تيسيرا على أمته وهديا لها . فكثير ما كان عليه أفضل الصلاة والسلام ما يطلب التيسير كما سترى في أمور كثيرة .

كذلك شهد هذا البيت في رمضان الكثير من الأمور التي نهى عنها النبي ﷺ ، والأخرى التي أباحها . وكان يفعل ذلك مبتدئا بنفسه ليكون هديا وتشريعا لمن بعده .

كان رسول الله ﷺ . يبيح إفطار رمضان للمسافر بل ويوجهه عليه . ولكن بشرط أن يكون في صوم هذا المسافر مشقة ظاهرة . ففي الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ في سفر . فرأى رجلا قد اجتمع الناس اليه وقد ظلل عليه فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : ماله ؟ قالوا : رجل صائم فقال ﷺ : ليس البر أن تصوموا في السفر » وبذلك قرر النبي ﷺ صراحة أن الصيام إذا شق على صاحبه أثناء سفره إلى الحد الذي يؤديه في صحته يعتبر إثما مكروها لا برا مشروعا .

وفي ذلك يروى أنس بن مالك رضي الله عنه : « كنا مع النبي ﷺ في السفر . وكان منا الصائم ومنا المفطر .. ونزلنا منزلا في يوم حار أكثرنا ظلا صاحب الكساء . فسقط الصوم . وقام المفطرون فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب . فقال رسول الله ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر » .

» « «

كذلك رفع صلوات الله وسلامه عليه التكليف بالصيام عن ثلاثة هم المجنون والصبي والنائم حيث قال : « رفع القلم عن ثلاثة المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم » .

وكان عليه الصلاة والسلام يسقط القضاء عن أكل وشرب ناسيا

حتى أنه ﷺ كان يعلق على ذلك قائلا : « إن الله سبحانه وتعالى هو الذى أطعمه وسقاه . فليس هذا الأكل والشرب يضاف إليه فيفطر به . فإنما يفطر المرء بما فعل » .

وأباح رسول الله ﷺ الفطور للشيخ المسن ، والمريض والمجاهد في سبيل الله وأيضاً الحامل والمرضع والنفساء والحائض فمنهم من وجب عليه القضاء ، ومنهم من يباح له الفطر مع وجوب الفدية التى يقررها التوجيه النبوى الشريف .

كذلك أباح الرسول ﷺ السواك والاستنشاق والكحل . وكثيرا ما كان يلاحظ على الرسول ﷺ أنه كان يخرج مكتحلا ، وكان يستاك ويصب الماء على رأسه دون أن يسبب ذلك إفطارا .

وكان ﷺ ينهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب . وكان يقول من الأفضل أن يكون جواب السباب عبارة « اللهم إني صائم » يقولها بلسانه ، وإن لم يستطع فيقلبه . فليس الصيام إمتناع عن الأكل والشراب فحسب وإنما هو إمتناع عن كل ما يؤذى الناس ماديا ومعنويا .

ويؤكد أهل بيت النبى ﷺ ، وصحابته رضوان الله عليهم على أمر يجمعون عليه من معاصرتهم للرسول الكريم واستماعهم المباشر لهديه فى رمضان . وهذا الأمر هو أن الصائم يفطر ويبتل صومه بواحدة من أربعة وهى المعدة والعقل والدم والشهوة . والغريب أن معظم المفطرات تدور حول هذه الجوانب الأربعة .

فالمعدة لها حالتان .

الحالة الأولى وصول شيء إليها وذلك يشمل أمرين : أولهما وصول شيء إليها من منفذ أصلى عمدا كالأكل والشرب وكل ما وصل إلى الجوف عن طريق الفم أو الأنف وثانيهما وصول شيء إليها من منفذ غير أصلى كالكحل في العين ، والتقطير في الأذن ودهان الجروح المتصلة بالجوف . في الأمر الأول الذى يدخل الشيء من منفذ طبيعى يكون مفطرا ، أما في الأمر الثانى لا يكون مفطرا عملا بما روته السيدة عائشة رضى الله عنها من أن رسول الله ﷺ اكتحل في رمضان وهو صائم .

في حالة خروج شيء من المعدة كالقيء عمدا فيفطر به الصائم . بينما القيء الذى يغلب الصائم دون تعمد فلا يفطر به . وحكمة ذلك أن هدف الصوم تنظيم عمل الاجهزة الهضمية . وتعتمد القيء يتنافى مع ذلك . فهو يسبب اضطرابا في الجهاز الهضمى . ولذلك كان من المبطلات بخلاف القيء الذى يغلب الإنسان فهو مما يضايقه . وبالتخلص منه يستريح الجهاز الهضمى . ولذلك لم يكن مفطر . وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه في هذا أن النبى ﷺ قال : « عن ذرعه القيء فليس عليه قضاء . ومن استقاء عمدا فليقض » .

* * *

أما العقل فإذا ذهب سقط بالجنون عن الصائم التكليف بالصوم . ولكن ما العمل إذا ذهب العقل مثلاً بالأغماء ككل الأمراض ؟ هنا يباح للصائم بالفطر . كما لا يبطل الصوم إذا استمر المسلم صائما . وإن كان ذهاب العقل بالنوم فإنه لا يتنافى مع الصوم . لأن

الصوم ليس عبادة تتطلب يقظة الفكر والقلب كالصلاة .

* * *

والحالة الثالثة من حالات إبطال الصوم الدم . فمن أسباب إبطال صوم الصائم دم الحيض والنفس . وحكمة ذلك أن نزيف دم الحيض يجهد المرأة . وقد يضعف صحتها . لكونه دما فاسدا متجمعا يتخلص منه الجسد دفعة أو على دفعات ، وتشغل به المرأة لما يسببه من تلوث اليدين ، وانشغال النفس بحالته إلى أن تطهر منه المرأة أو ينقطع عنها . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « هذا شيء كتبه الله على بنات حواء » يعنى لمن العذر ولا إثم عليهن . وقد راعى النبي ﷺ في المرأة هذه الحالة فرفع عنها التكليف في الصلاة والصيام . إلا أنه يجب على المرأة قضاء ما فاتها من صوم أثناء فترة الحيض .

ولكن الدم الذى ينزل من الانف أو الجروح أو دم الحجابة وهى أخذ الدم من الجبهة على سبيل العلاج أو الفصد وهو أخذ الدم من أى عضو فلا يفطر الصائم بفعل شيء من هذا .

* * *

وتبقى الحالة الرابعة من حالات إبطال الصوم وهى الخاصة بالشهوة التى تشمل أمرين .

أولهما مباشرة الرجل للمرأة تفسد الصيام ولو لم يحدث إنزال . وهو الجماع لقوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن . علم الله أنكم كنتم تختاتون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باسروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا

وأشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل : ﷺ ولذلك كان من هدى رسول الله ﷺ أنه كان يغتسل وهو جنب من أهله ويصوم .

إلا أن من جامع زوجته في نهار رمضان فقد فسد صومه وعليه القضاء والكفارة . أما القضاء فهو أن يصوم يوما عوضا عن اليوم الذى أفسد صومه ، وأما الكفارة فهي أن يصوم ستين يوما متتابعة ليس فيها يوم عيد ولا يوم من أيام التشريق . فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا عن صيام كل يوم تكفيرا عن انتهاكه لحرمه نهار رمضان لما ثبت من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ أيام رمضان فقال : يا رسول الله .. هلكت وأهلك . فقال النبي الكريم : ماذا صنعت ؟ قال الرجل : وقعت إمراة في نهار رمضان متعمدا . فقال رسول الله ﷺ : إعتق رقبة . فقال الرجل : لا أملك إلا رقبتى هذه . فقال رسول الله ﷺ : صم شهرين متتابعين . فقال الرجل : وهل جاءنى ما جاءنى إلا من الصوم فقال رسول الله ﷺ : إطعم ستين مسكينا . فقال الرجل : لا أجد . فأمر رسول الله ﷺ أن يؤتى بفرق (بسكون الراء وهو مكيال) من تمر فيه خمسة عشر صاعا وقال ﷺ : فرقها على المساكين . فقال الرجل ما بين لابتى المدينة أحد أحوج منى ومن عيالى . فضحك النبي ﷺ حتى بدت ثناياه ثم قال عليه أفضل الصلاة والسلام : خذه فأطعمه أهلك يحزبك الله ولا يحزى أحد بعدك » .

هذه القصة التى يروها أبو هريرة رضى الله عنه لا تخلو من الالتزام بإقامة حدود الله مع التيسير الذى لا يؤتى من بشر غير النبي الكريم .

وأما من استمنى بيده وهو ما يعرف في عصرنا « بالعادة السرية » في نهار رمضان متعمدا فعليه القضاء فقط . أى يصوم يوما بعد رمضان . ولا كفارة عليه . لأنه وإن وجد فيه معنى الجماع - وهو الانزال - فإنه لم توجد صورة الجماع ولم تكتمل عنده الحالة الموجبة للكفارة . وإن كان ذنب ذلك كله عند الله عظيما . كما يرى الامام عبد الحليم محمود .

وأما المباشرة التى لا تفسد الصوم وتشمل القبلة ، فقبلة الرجل لزوجته وهو صائم لا يبطل بها صومه . كما يسجل الامام ابن القيم الجوزية رضى الله عنه فى كتابه « زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد خاتم النبیین والمرسلين » ما روته السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان النبى ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم ، وكان أملكه لإربه (أى لشهوته) » .

والحق أن رسول الله ﷺ - كما يسجل إجماع العلماء - قد أباح القبلة ، وشبه قبلة الصائم لزوجته بالمضمضة سواء بسواء . ومن المباشرة فيما دون الفرج . فللصائم أن يباشر إمرأته دون الفرج . إن آمن لإنزال المنى . كأن يتمتع بإحتضانها ومداعبتها . فإن تسبب من ذلك نزول المذى ، وهو ماء رقيق يخرج بمقب فتور الشهوة بلا لذة ولا دفع فلا ضرر بذلك . وإن تسبب نزول المنى فسد الصوم .

وبناء على ما تقدم يجمع العلماء أن الصائم لا يفطر بأمر خارج عن ارادته كالإحتلام نهارا ، وكإنزال المنى أو المذى بسبب مجرد النظر أو الفكر ، وكذلك لا يفطر إذا أجنب بالليل ثم أصبح جنبا ، أو إذا انقطع دم الحيض أو النفاس فى اللحظة الأخيرة قبل غروب الشمس .

وكذلك من نوى الفطر وهو صائم ، وإن لم يتناول مفطرا . فإن النية ركن من أركان الصيام . فإذا نقضها قاصدا الفطر ومتعمدا له . بطل صيامه لا محالة . ومع هديه عليه الصلاة والسلام نواصل التطلع إلى هذا البيت الكريم . وما يتم فيه خلال شهر رمضان المعظم سواء من آل البيت أو من صحابة رسول الله ﷺ . والجميع يلتبس الهدى من البشير النذير الذى بعث رحمة للعالمين . ومن مجموع ما نظفر به من هذا الهدى النبوى يتكون لدينا ذلك السلوك الشرعى المتبع بعد ذلك فى رمضان حتى قيام الساعة .

ففى هذا الشهر المعظم . تستحب قراءة القرآن . وكثيرا ما كان سيدنا رسول الله ﷺ يحدث صحابته عليهم رضوان الله عن فضل قراءة القرآن . بل وكان عليه الصلاة والسلام ينصح أصحابه وأتباعه لتأمل وتعلم آيات هذا الكتاب المبين وها هو أحدهم عثمان بن عفان رضى الله عنه يستمع إلى النبى حين يقول : « إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » .

وكان رسول الله ﷺ يتلو القرآن - فى رمضان - عذبا ثم يحدث صحابته وأتباعه وآل بيته عن كرامات هذا الكتاب حيث يقول :

« لا أحسد إلا فى اثنتين منهما رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وأثناء النهار » .

وهذا أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يقول لرسول الله ﷺ أوصنى يارسول الله فبدر الرسول الكريم : « عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله . قلت : يارسول الله زدنى ؟ فقال رسول الله ﷺ : عليك بتلاوة القرآن فإنه نورٌ لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء » .

فالنبي ﷺ كان يرى في القرآن خير وسيلة لإثتلاف القلوب .
وها هو جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول :
« اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه » صدقت
يارسول الله . فقراءة القرآن عبادة ، والتفكير فيه خير ، واتباعه واجب ،
وكلما اقتربنا منه إقترنا من الله عز وجل .

ورمضان شهر يستحب فيه الإحسان . وهذا رسول الله ﷺ كان
أجود الناس في شهر رمضان حتى إن ابن عباس رضى الله عنه قال :
« كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في شهر
رمضان . حين يلقاه جبريل عليه السلام وكان يلقاه في كل ليلة من
رمضان . فيدارسه القرآن فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » .

وفي ليالى شهر رمضان اتبع المسلمون في أكلهم وشربهم نص الآية
الكريمة : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ
مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ ولما نزلت هذه الآية الكريمة . عهد
واحد من المسلمين هو عدى بن حاتم . إلى عقال اسود وعقال أبيض
وجعلهما تحت وسادته ، وظل ينظر اليهما في الليل فلا يستبين له شيء .
فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك . فقال الرسول ﷺ : « إنما
ذلك سواد الليل وبياض النهار » .

ومن هنا كان على الصائم أن يستعد قبل أن يتبين هذا الأبيض من
الاسود . أو قبل الفجر . وقد كانت هناك وسيلة في عصر النبوة تحدد
ذلك . فقد لاحظ آل بيت رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أن

ما بين سحور رسول ﷺ وأذان الفجر ما تستغفره قراءة خمسين آية مع استيفاء شروط قراءة القرآن .

وقد روى البخارى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال :
« تسحرنا مع النبي ﷺ . ثم قام إلى الصلاة . قلت : كم كان بين الأذان
والسحور ؟ قال رسول الله : قدر خمسين آية » .

إذن فالسحور واجب لأنه يميز صيامنا في رمضان عن صيام أهل
الكتاب وفيه يقول ﷺ : « تسحروا فإن في السحور بركة . فلا تدعوه
ولو أن يتجرع أحدكم جرعة ماء » .

والرسول حين أوصانا بالسحور فإنه عليه أفضل الصلاة والسلام
ينهى ضمينا عن مواصلة الصوم ليلا ونهارا تلك المواصلة أو الوصال الذى
ينهى عنه صراحة عندما أراد أهل بيته وصحابته رضوان عليهم أن يقلدوه
حين كان يواصل الليل بالنهار . وألخوا عليه قائلين رضوان الله عليهم :
« إنك تواصل الليل بالنهار - فلماذا لا نفعل ؟ قال عليه الصلاة والسلام :
ردا على سؤالهم : لست مثلكم إني أظل عند ربي يطعمنى ويسقيني » كما
سنرى بعد قليل في الحديث عن وصاله عليه أفضل الصلاة والسلام في
شهر رمضان المعظم .

ولذلك أوصانا الرسول ﷺ بالسحور وكان يحرص عليه . وكان في
سحوره متواضعا بسيطا . فهو في الأصل كان يقصد بالسحور النشاط
الإنسانى الذى قد يخمل ويخمد بغير غذاء أو شراب .

المسلم طالما وقد أمسك عن الطعام والشراب والجماع قبل الفجر فقد صام شرعا . حتى إن نام بعد ذلك ورأى في المنام أنه جامع وأستيقظ فوجد نفسه قد أنزل فلا شيء عليه لأن الحرج مرفوع عن النائم حتى يستيقظ . ولأن الصوم إنما يفسد بتعمد فعل ما يفطر أو التسيب فيه بعدم الإحتراز ، ولأنه يجوز الغسل في أثناء الصيام وبقاء الجنابة في أثناء النهار لا يفسد الصوم .

وكما كان النبي ﷺ بسيطا متواضعا في سحوره . فهو أيضا كان كذلك في فطوره . لقد كان ﷺ يفطر قبل أن يصلي المغرب ، وكان فطوره على رطبات قليلة هذا إن وجد . وإن لم يجد فإنه يحمد الله على ذلك . وتقول أم المؤمنين زوجته السيدة عائشة رضى الله عنها : « دخل على رسول الله ﷺ ذات يوم فقال هل عندكم شيء ؟ قلنا : لا . قال عليه أفضل الصلاة والسلام فأني إذن صائم » .

ويذكر عن النبي ﷺ أنه كان يقول عند أفطاره : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت فتقبل منا أنك أنت السميع العليم » .

ويقول ﷺ حين سئل عن موعد الإفطار : « إذا أقبل الليل من ها هنا ، وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم » : وفسر ذلك بأن الصائم يفطر حكما وإن لم ينوه .

وعن سهيل بن سعد رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور . لأن اليهود وأهل الكتاب يؤخرون الإفطار إلى إشتباك النجوم في السماء » .

ولكن ما حكم من يصوم شهر رمضان ولا يصلى ؟ هذا السؤال ربما يتردد فى عصرنا . وإن كان غير وارد فى عصر النبوة حيث كان المسلمون الأوائل يحرصون على الصلاة حرصهم على الصيام . لأنهم تعلموا من هدى النبوة وأدركوا أن الصلاة عماد الدين مَنْ أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « إن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه . فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال النبى ﷺ : « أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا » .

وقالت أيضا السيدة عائشة رضى الله عنها : « لم يكن ﷺ على شئ من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتى الفجر » نعم كان النبى يحرص على ذلك فى شهر رمضان . كما يحرص عليه فى بقية الأوقات .

بعد ذلك قد يسأل سائل فى عصرنا الحديث : وما حكم الصوم ؟ ليرد عليه العلماء وفى مقدمتهم الإمام الشيخ عبد الحليم محمود قائلا : نقول إن صومه صحيح . بمعنى أن تأديته للفرض صحيحة . وأنه لا عقاب عليه فيما يتعلق بالصوم . إنما حسابه وعقابه على ترك الصلاة .

يبقى من الحديث عن ذلك البيت وما كان يحدث فيه فى رمضان ... نعى بيت النبوة . الوصال أى مواصلة الصوم والاستمرار فيه ليلا ونهارا . والنبى ﷺ وقد كان يخص شهر رمضان بالعبادة . بما

لا يخص غيره من الشهور ، حتى أنه كان يواصل - أحيانا - الصوم حتى يوفر ساعات الليل والنهار لهذه العبادة . خصوصا وأننا نعرف أن آيات كثيرة من القرآن الكريم صاحبت حلول هذا الشهر المعظم . فكان يواصل حتى لا يشغله عن كل ذلك طعام أو شراب أو ما إلى ذلك مما يفعله صائم رمضان في فترة أفطاره قبل الإمساك . وقد لاحظ ذلك أهل بيته وصحابته عليهم رضوان الله . فأرادوا أن يسلكوا هديه ، فنهاهم عن ذلك كما تقول زوجته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم » أو كما قال أبو هريرة رضى الله عنه : « إن النبي ﷺ قال إياكم والوصال . قالها ثلاث مرات . قالوا فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال ﷺ : أنكم لستم في ذلك مثلى . إني أبيت يطعمنى ربي ويسقيني فأكلفوا من الأعمال ما تطيقون » .

وقد اختلف المفسرون في أمر هذا الطعام الذى يطعمه به رب العزة سبحانه وتعالى . المذكور في نص الحديث . فالبعض كان يرى أنه طعام وشراب حسى للضم قالوا ذلك إنطلاقا من لفظى الطعام والشراب . وقال البعض الآخر إن المراد بهذا الطعام والشراب ما يغذى به الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ من المعارف ، وما يفيض به - سبحانه وتعالى - على قلبه من لذة مناجاته ، وسعادته بقربه ، وتنعمه بحبه والشوق اليه جل شأنه ... وغير ذلك مما هو غذاء للقلب ، ونعيم للروح ، وقرة للعين ، وبهجة للنفس .

والإمام ابن القيم الجوزية رضى الله عنه يوضح لنا ذلك في كتابه « زاد

المعاد » ويقربه إلى إذهاننا حيث يضرب لنا مثلاً بمن له تجربة شوق ، فإنه يدرك استغناء الجسد بغذاء القلب والروح . عن كثير من الغذاء الحيواني فيقول : « المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذى قد قرت عينه بمحبوبه ، تنعم بقربه والرضا عنه ، والطاف بمحبوبه وهداياه وتحفه تصل اليه كل وقت ... فكيف بالحبيب الذى لا شئ أجل منه ولا أعظم ولا أجمل ولا أكمل ولا أعظم إحسانا إذا إمتلأ قلب المحب بحبه ، وملك حبه جميع أجزاء قلبه وجوارحه ، وتمكن حبه منه أعظم تمكن . وهذا حاله مع حبيبه . أفليس هذا المحب عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً . ولهذا قال إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ولو كان ذلك طعاماً وشراباً للفم ، لما كان صائماً فضلاً عن كونه مواصلاً ، وأيضاً فلو كان ذلك فى الليل لم يكن مواصلاً ولقال لأصحابه إذا قالوا له إنك تواصل . لست أواصل ولم يقل لست كهياتكم . بل أفرهم على نسبة الوصال اليه وقطع الأخلاق بينه وبينهم فى ذلك بما بينه من الفارق » .

والوصال إذن كان خاص بالنبي ﷺ . حتى حين حاول بعض أهل بيته وصحابته رضوان الله عليهم . الوصال تأسيساً بهدى رسول الله ﷺ والخوا فى ذلك . أراد ﷺ أن يرد عليهم عملياً . أن يدخل وإياهم فى تجربة عملية لهذا الوصال فواصل بهم يوماً . ثم رأوا الهلال فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لو تأخر عنى الهلال لزدتكم » أى لكان عليه أفضل الصلاة والسلام واصل بهم الصيام يوماً ثالثاً حتى يريهم مشقة الوصال . أو كما رأى أبو هريرة رضى الله عنه أن ما فعله النبي ﷺ كان نوعاً

من الزجر حيث قال : « وذلك كالتنكيل لهم لما أبوا ألا ينهوا عن الوصال » .

الوصال إذن منهى عنه نهى تحريم . إذا أضر بالإنسان ، ونهى كراهية إذا لم يضر . لأنه في الحالة الثانية حالة عدم اضراره فإنه من غير شك يبعث في الإنسان فتورا ، وإنصرافا عن العمل ، ويتسبب عنه كسلا في طلب الرزق ولهذا كان نهى النبي ﷺ لأهل بيته وصحابته .

وحتى حين سمح سيدنا رسول الله ﷺ . بشيء من الوصال جعله موقوتا محددا حتى موعد السحور . فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لا تواصلوا فأیکم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » أى إلى ما قبل الفجر بوقت كاف لتناول الطعام والشراب .

يفهم من هذا أن الوصال خاص بالنبي ﷺ ، وأن بعض أصحابه وأهل بيته كانوا يريدون أن يواصلوا ولكنهم عدلوا عن ذلك إتباعا لأمره ﷺ . بل إن الطريقة المثلى في الصوم هي في تعجيل الفطور وتأخير السحور كما ورد عن رسولنا الكريم حيث قال : « لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحر » وفي ذلك حكمة إسلامية هي طلب التيسير على الناس في أمر من أمور دينهم .

وكان رسول الله ﷺ يواصل صيام ستة أيام من شوال بعد رمضان ولكن بشرط أن يكون الفطر يوم العيد فاصلا بين إتمام شهر رمضان وهذه الأيام الستة وفي ذلك يقول النبي ﷺ : « من صام رمضان ، ثم اتبعه

بسته من شوال كان كصيام الدهر كله « فصيام هذه الأيام الست من شوال سنة وليست فريضة . هو أمر مستحب وليس مفروضا ... أمر له ثوابه العظيم .

إلى آخر هذه الجوانب التي يمكن رصدها عن النبي ﷺ في بيته أثناء شهر رمضان . والخاصة بهديه . وليس في الحديث عن آل هذا البيت فلذلك مجاله العام وليس الخاص برمضان إلا إذا ارتبط بحدث معين ثم في رمضان كما سنرى بعد ذلك □

فى حرية القائد والسياسى

وإذا خص الله سبحانه وتعالى شهر رمضان بنزول القرآن الكريم ،
على غيره من الشهور العربية الأخرى . فإنه سبحانه وتعالى قد خص هذا
الشهر المعظم أيضا بالإنجازات الحربية العظيمة فى ميدان القتال . صحيح
أنه إلى جانب هذه الإنجازات الحربية ، كانت هناك إنجازات سياسية قامت
دعائمها على الدعوة إلى الله بالحسنى ، فلم تشغل الأعمال القتالية فى
عصر المبعث الذى إمتد ثلاثة وعشرين عاما أكثر من ثمانية أعوام هى
بالتحديد من العام الثانى للهجرة ، إلى العام التاسع ، وأن تكون بعض

هذه الأعمال القتالية التي كتب للمؤمنين فيها النصر ، أغلبها في رمضان ، أو بالتحديد في السنوات التسع الأخيرة من حياة الرسول ﷺ .

ويفهم من ذلك أن صدر الإسلام قد اصطبغ بالجهاد . وهذا أمر طبيعي . إذ أن الطريق أمام الرسول ﷺ لم يكن معبدا مفروشا بالورود . بل هو مليء بالأشواك ، محفوف بالمكاره ، ومن الواجب عليه وعلى الذين آمنوا به عليه أفضل الصلاة والسلام أن يوطنوا أنفسهم على الصبر والجهاد ، أن يكونوا بأعمالهم القدوة الحسنة لكل من يأتي بعدهم من المصلحين .

ولذلك يقرر العلماء قديما وحديثا بأن الإسلام دين جهاد وليس دين استكانة أو استسلام . وكيف يكون كذلك وهو في الأصل دين القوة والعزة ، دين الإباء والكرامة دين الرفعة والشمم ، والمؤمن القوى في هذا الدين خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وكيف لا يكون المؤمن كذلك وهو يعلم أن عقيدته الإسلامية التي نهض بإعتناقها ... تزوده بمبادئ الحق والفضيلة ، وتنزهه عن مزالق الفتنة والرذيلة .

طهرت عقيدته من الزيف والخرافة ، وخلصت عبادته من الرياء والبدعة ، وتنزهت معاملته من الغش والظلم ... ثم ملك زمام نفسه بمكارم الاخلاق وجميل الصفات .. من علم وعمل ، وتضحية وفداء ، وتعاون وبر ... ومن تكون هذه سماته كيف لا يعيش قويا عزيزا .

ولوجود هذا المؤمن القوى الذي هو أحب إلى الله من المؤمن .

الضعيف في فجر الإسلام ... كان لابد أن يزدهر الجهاد وقتئذ خصوصاً وأن هناك في الطرف الآخر من يناصب الدعوة في بدايتها العداة . وهناك من المشركين من يتربصون للإسلام ونبيه الكريم الدوائر ..

وللجهاد في الإسلام خصائصه دون غيره من الديانات السماوية فقد بين الله سبحانه وتعالى أن التفرغ للقتال ، لا يصرف عن الإنسان الرزق أو يمنعه . فالرزق ضمنه الله سبحانه وتعالى . وأقسم على ذلك . حتى لا يغمر القلق أقطار النفس البشرية . كذلك بين الله الجهاد لا يقصر الأجل . فقد يكون مجاهداً في الحرب أقرب الناس إلى الموت مع أنه أبعدهم عن هذا الموت بأمر الله . ذلك أن الآجال محددة بأمره سبحانه وتعالى . ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ كذلك يرفض الإسلام التخلف عن الجهاد أو الاستئذان فيه . فهذا الاستئذان يتعارض مع كون الفرد مؤمناً بنص الآية الكريمة : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وأرتابت قلوبهم فهم في زيفهم يترددون ﴾ .

وحتى إن انتهى الجهاد بالاستشهاد . فالمصير من الله هو الجنة حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل إحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل إحياء ولكن لا تشعرون ﴾ .

فإذا كان هذا هو طابع الإسلام في الجهاد . فلا بد أن يكون نبي هذا الدين صلوات الله وسلامه عليه هو أعظم الجاهدين . أليس هو القائل : « والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » وهو القائل أيضا : « من مات ولم يغزو ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » . إن النبي العابد هو النبي المجاهد . وأن نبي الرحمة هو نبي الجهاد . وما الجهاد في الإسلام إلا في سبيل الله ، وإذا خرج عن سبيل الله لم يكن جهادا ولا إسلاميا . لذلك لم يتراجع النبي ﷺ في واحدة من الغزوات ، فخرج في مقدمة المجاهدين في سبيل الله من المؤمنين في إحدى وعشرين غزوة . كان في كل غزوة . نعم القائد ، ونعم السياسي أيضا الذي يستشرف رؤى المستقبل . وهذه القصة التي رواها « البراء بن عازب » رضي الله عنه فقال : « أمرنا رسول الله ﷺ . بحفر خندق فعرضت لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول . فشكونا إلى رسول الله ﷺ . فجاء ثم هبط إلى الصخرة وأخذ المعول وقال : بسم الله . وضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام . والله أنى لأبصر قصورها

الحمر من مكاني هذا . ثم قال : بسم الله . وضرب ضربة أخرى فكسر ثلث الصخرة الثاني . فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس . والله إني لأبصر المدائن . وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا . ثم قال : بسم الله وضرب ضربة ثالثة فقلع بقية الصخرة . فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن . والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا .

هذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على أمور كثيرة في مقدمتها أولاً بُعد نظر النبي ﷺ . فالذي تنبأ به من فتوحات في الشام وفارس واليمن قد تحقق في أقل من ربع قرن من الزمان على أيدي خلفائه رضى الله عنهم . ثانياً : هذا التفاؤل والثقة بالله وبالنفس وهو من الأمور التي ينبغي أن يتمتع بها السياسي أو المصلح الاجتماعي . فعليه أن يشيع الأمل والتفاؤل في صفوف رجاله لاسيما إذا كانوا في حرب مع قوى أكبر وأعظم . ثالثاً قيام الرسول ﷺ بأى عمل يقوم به أى جندي من جنوده مع أنه هو القائد الأعظم . فضلاً عن كونه النبي الأكرم ... يضاف إلى كل ذلك استفادة النبي ﷺ وصحبه رضى الله عنهم بفنون الحرب عند غيره ممن يحيدها . خاصة القوتين العظيمتين في العالم القديم الروم وفارس واستيعابه عليه الصلاة والسلام للجوانب الإيجابية عندهما . فلا يوصد باباً أمام خبرة قتالية منظورة ، ولا يخلق فكراً أمام تطوراً عسكرياً جديداً مما أدى إلى انتصاره عليهما . وهو ما يفصله كتاب « الانتصارات العربية العظمى في صدر الإسلام » للمشير محمد عبد الحليم أبو غزالة حيث يقدم بخبرته العلمية والقتالية في الوقت نفسه دراسة نادرة تعتمد على الحقائق التاريخية والموضوعية المتعلقة بفن القتال في صدر الإسلام .

ولا يفهم من ذلك أن الإسلام قام على الإعتداء كما يشيع اعداء الإسلام . فالاسلام كان يرفض كل صنوف الاعتداء بنص الآية الكريمة : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . فأعماله الحربية كانت بغرض الدفاع عن النفس أولا ونشر الدعوة ثانياً بجهد المهاجرين والانصار . فإذا كان لدى المهاجرين ما يبرر لهم القتال دفاعاً عن عقيدتهم التي من أجلها تركوا ديارهم وهاجروا ، واسترداد ما حجزته قريش من أموالهم عند هجرتهم . فإن للانصار أيضاً ما يبرر لهم القتال . دفاعاً عن هذا الدين الذي دخلوه بإختيارهم . إلى جانب دفاعهم عن إخوانهم من المؤمنين المهاجرين الذين هاجروا إليهم واستجاروا بهم من إيذاء قريش . وإذا كان هذا العمل كبير عند المؤمنين مهاجرين أو أنصار . فإنه عند الله - ورسوله أكبر من كل شيء ذلك لأن الدفاع عن الدين والعقيدة هو الغاية التي شرع الله من أجلها القتال ، والمثل على ذلك واضح هو ما نزل في سرية « عبد الله بن جحش الاسدي » الذي بعثه سيدنا رسول الله ﷺ في شهر رجب بعد الهجرة ، ومعه جماعة من المهاجرين . وسلمه كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين - فيمضي ولا يكره أحد من أصحابه ومضى اليومان وفتح عبد الله كتاب رسول الله ﷺ فإذا فيه : « وإذا نظرت في كتابي هذا فأمضي حتى تنزل نخلة (وهو مكان بين مكة والطائف) فترصد بها قريش ، وتعلم من أخبارهم » وأخبر عبد الله مَنْ معه بأنه لا يكره أحداً على المضي معه . فمضوا جميعاً إلا إثنين هما سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان . اللذين ذهبا يبحثان عن بعير لهما ضال .

فأسرتهم قريش . وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا المكان المحدد في آخر رجب . وهنا مرت بهم بعير تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي . فتذكر عبد الله ومن معه ما صنعتهم قريش بهم . وتشاوروا في الأمر وقال بعضهم لبعض : « والله لعن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فلمنعن منكم به . ولكن قتلتموهم لتقلنهم في الشهر الحرام » وترددوا في الإقدام على هذا العمل الأخير . إلا أنهم تشجعوا على القتال . ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من رجاله . وعاد عبد الله بالبعير والاسيرين إلى المدينة . فلما رآهم النبي ﷺ قال لهم زاجرا : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » وأوقف البعير والاسيرين وأنى أن يأخذ من ذلك شيئا . وعنف عبد الله وأصحابه . ورغم ذلك انتهزت قريش الفرصة ونادت في كل مكان من الجزيرة أن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام فسفكوا الدماء وأخذوا الأموال وأسروا الرجال ، ودخل اليهود بالدمس يريدون إشعال نار الفتنة وهنا نزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال كبير وصعد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن أستطاعوا ﴾ . وهنا ارتاحت ضمائر المؤمنين لما فعلوا بعد نزول هذه الآية الكريمة في هذا الامر بالذات فأزدادت قبضتهم على الاسيرين . حتى إذا افتدتهم قريش قال النبي ﷺ : « لا نفدكموهما حتى يقدم صاحبانا » وقدم سعد وعتبة وأفداهما النبي بالاسيرين .

وهنا يجيب القرآن الكريم على سؤال هل القتال في الشهر الحرام من
الكبائر؟ ويقرهم على أنه بالفعل أمر كبير لكن هناك ما هو أكبر . إنه
الجهاد في سبيل الله فلا جناح على الذى يقاتل في سبيل الله أو يقاتل
لنصرة دين الله . ولقد كانت هذه الواقعة سببا في معركة بدر ☐

واستجابت السماء يوم بدر

وكان قتل عمرو بن الحضرمي أول دم أريق في الاسلام بغير قصد أو تخطيط . فكما رأينا أن سرية عبد الله بن جحش خرجت لتقييد أخبار المشركين وليس لقتالهم . وحين عاد عبد الله بن جحش عن سرية الرسول ﷺ على ما صنع وتجمد الموقف حتى نزلت الآية الكريمة التي شرعت قتال الذين يفتنون المؤمنين ويصدوهم عن دينهم وعن الجهاد في سبيل الله ونشر دينه . وعلى هذا كانت هذه الواقعة بمثابة الحد الفاصل بين الطرفين المسلمين من ناحية يفكرون في رد أموالهم التي استولت عليها

قريش بعد هجرتهم وليس هناك من سبيل آخر غير القتال . خصوصا وأن قريشا أثارت عليهم القبائل بحجة أنهم قاتلوا في الشهر الحرام . والمشركون من ناحية أخرى يريدون قتال المسلمين للأخذ بثأر عمرو بن الحضرمي كسبب ظاهري وأما السبب الحقيقي فهو لحماية تجارتهم القادمة من الشام كهدف أولى من بعده يأتي الهدف الأكبر وهو القضاء على المسلمين ونبههم ودينهم .

ولم يكن ذلك بخافي على الرسول ﷺ بالضبط كما لم يكن خافيا عليهم أن لا سبيل للإتفاق مع هؤلاء الذين أخرجوهم من ديارهم وأستولوا على أموالهم إلا بقتالهم . كذلك أدرك المشركون أن تجارتهم أصبحت مهددة تهديدا حقيقيا من المؤمنين مما يؤدي إلى انهيار مركزهم الاقتصادي وأن إزدياد نفوذ الإسلام يقابله ضعف لسيادتهم على القبائل العربية فلا سبيل إذن للإتفاق مع هؤلاء الذين يهددونهم إلا بقتالهم . كانت هذه هي حوافز أو أهداف كل من الطرفين على القتال . وعلى هذا فكل من الطرفين يعد نفسه للمواجهة .

في الجانب الاسلامي النبي يدعو المؤمنين للجهاد في سبيل الله ويقول لهم : « هذه غير قريش (اشارة إلى العير القادمة من الشام محملة بتجارة المشركين) فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » ويخف البعض ويشغل الآخر حيث لا يتصورون أن النبي ﷺ سيخوض معركة حقيقية مع قريش وإنما هي لا تزيد عن كونها واحدة من مناوشات الحرب . ويتحرك المسلمون إلى بدر في الثامن من رمضان في العام الثاني الهجري . على

النحو التالى : فريق للاستطلاع للحصول على المعلومات عن قافلة قريش التجارية القادمة من الشام يتبعه الفريق الرئيسى لقوتهم المؤلف من كتيبتين . الأولى من المهاجرين ويحمل رايتها على بن أى طالب رضى الله عنه ، والثانية من الأنصار ويحمل رايتها سعد بن معاذ . والرايتان سودوان . ثم مؤخرة المسلمين بقيادة قيس بن أبى صعصعة ويتقدم هذه الفرق الحاربة مصعب ابن عمير حاملا راية بيضاء كنوع من الخدعة فى الحرب . وسلك الجميع طريق القوافل حتى بلغوا بدر .

وجاء رجلان من استطلاع المعلومات وابلغا النبى ﷺ أن قريشا تخرج من مكة لحماية قافلتها التجارية القادمة من الشام . وعرض الأمر على المسلمين طالبا المشورة وليعرف استعداد الرجال على خوض المعركة مهاجرين وأنصار فقام المقداد بن عمرو من المهاجرين وقال : « يا رسول الله ! امض لما أمرك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى (برك الغماد) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه » .

وهنا أدرك النبى الكريم موقف المهاجرين وبقي الأنصار . فأعاد النبى ﷺ السؤال : « أشيروا علىّ أيها الناس » فقام سعد بن معاذ وقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أجل » قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فأمض لما أردت فنحن

معك . فوالله الذى بعثك بالحق . لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ... إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وهنا إطمأن النبي ﷺ لتضحيه المهاجرين والأنصار ، ولكن هناك أمور لا بد من معرفتها في مقدمتها تعداد المشركين القادمين لحربه ومتى يكون اللقاء ؟ فرأى أن يبعث دورتين للاستطلاع من خيرة رجاله ، حتى يعتمد على ما يأتون به من معلومات . وكانت الدورية الأولى مكونة من على ابن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم . وأمرها الرسول الكريم بالتوجه إلى ماء بدر ، حيث يتوافد عليه من يدهم بشيء وعادت الدورية بغلامين من قريش استنطقهما النبي ﷺ فعلم منهما أن قريشا برجالها وراء الكثيب وسألهما عن تعداد رجالها فلم يعرفا . فسألهما : كم ينحرون يوما ؟ « فأجاب الغلامان : يوما تسعا ويوما عشرة » فاستنبط النبي ﷺ بأنهم بين التسعمائة والألف .

وكانت الدورية الثانية مكونة من رجلين (لم تسجل الكتب القديمة أو الحديث اسميهما رغم أهمية ذلك) وقد وصلا ماء بدر فسمعا جارية تطالب صاحبها بدين لها ، والثانية تجهيها : « إنما تأتى العير غدا أو بعد غد فاعمل لهم ثم أقضيك الذى لك » وعادا ليخبرا النبي الكريم بما سمعا فاستنبط أن موعد اللقاء إما غدا أو بعد غد .

وعلى الفور تحرك المسلمون قريبا من ماء بدر . عسكروا هناك

فسأل الحباب بن المنذر رسول الله ﷺ : « أرايت هذا المنزل . أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » قال رسول الله ﷺ : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » فقال الحباب : « يارسول الله ! فإن هذا ليس بمنزل فإنهم بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ، ثم نعور (أى نفسد) ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » ووافق النبي على هذا الرأى - .

* * *

وهناك فى الطرف الثانى ... يعلم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ لإعتراض قافلته المحملة بتجارة ... هى أموال قريش كلها . فيبعث رسولا إلى مكة يستنفرها بأن المسلمين يستولون على أموالهم . وهنا خرجت قريش لاسترداد أموالها . بينما يغير أبو سفيان طريق عودته مع القافلة . حتى يأمن على نفسه وقافلته وفى الوقت نفسه يشغل المسلمين بملاقاة قريش التى تحركت لنجدته . وعرفت موضع المسلمين وتعدادهم فسارت فى عدد من المقاتلين يزيد على ثلاثة أضعاف عدد المسلمين لاسترداد أموالها ، وأخذ ثار عمرو بن الحضرمى .

وهكذا التقى الجمعان فى السابع عشر من رمضان . النبي ﷺ أشد ما يكون قلقا من مصير ذلك اليوم ، وأكثر ما يكون اشفاقا لما يقول اليه أمر الإسلام إذا لم يتم النصر إلى أن بدأ الاشتباك . وهنا إتجه إلى الله

عز وجل ينشده ما وعده به ويهتف أن يتم له النصر وجعل يقول : « اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرک الذى وعدتنى . اللهم أن تهلك هذه العصاة اليوم لا تعبد » .

واستمر يدعو ربه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه ، وقام أبو بكر برده وهو يقول : « يا بنى الله ! بعد مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك وعده » .

واستجابت السماء لدعائه وما هى إلا لحظات حتى سرت من نفسه قوة إلى نفوس هؤلاء المؤمنين فى قلتهم مما ضاعف من عزيمتهم إذ ذاك أكثر وأكثر حيث كان النبى ﷺ يتنقل بين صفوف رجاله يحثهم على الجهاد .

وأخذت صفوف المؤمنين تقترب رويدا من فلول العدو التى فقدت توازنها بفقدان قياداتها . الأمر الذى أدى إلى تفتيت قوات المشركين . وحينئذ أمر النبى ﷺ رجاله بأن يشدوا عليهم . أى القيام أولا والمطاردة ثانيا . حتى يضعف قوى المشركين . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فأنهزموا وأنتصر المؤمنون .

هذه إشارة إلى معركة بدر الكبرى . بالقياس لما ترويه عنها الكتب المهمة بالسيرة النبوية . على إعتبار أن هذه المعركة الحاسمة وجهت الإنظار إلى قوة للمسلمين ينبغى أن يحسب الاعداد حسابها .

والجدير بالذكر أن الكثير من الكتابات إهتمت بتقصي أسباب هذا النصر . ومن بين هذه الكتابات الحديثة ما كتبه اللواء الركن محمود شيت خطاب الذى قام بدراسة ضافية لهذه المعركة من الوجهة الحربية فرأى أن لهذا النصر أسباب فى مقدمتها بناء المسلم على ثلاث دعائم هى العقيدة الإسلامية والقُدوة الحسنة وإختيار الرجل المناسب للمكان المناسب . يسبق هذا السبب أمر على جانب كبير من الاهمية وهو القيادة الموحدة فى شخص الرسول ﷺ وتطبيقه اسلوبا تعبويا جديدا لم تكن العرب تعرفه . ثالث هذه العوامل التى سببت النصر هو رسوخ العقيدة الإسلامية فى نفوس المؤمنين فى قتلهم هذا إلى جانب إهتمام النبى الكريم بمعنويات رجاله وغيرها من الأسباب □

شهداء المسلمين وقتل المشركين

وفي نهاية المجلد الأول وبداية المجلد الثاني من كتاب السيرة النبوية لابن هشام « ثبت » بأسماء من حضروا من المسلمين يوم بدر ومن أستشهد منهم ، و « ثبت » مماثل لقتلى وأسرى المشركين . وكان يكفى ابن هشام الذى يسجل رواية ابن إسحاق وغيره من الرواة فخرا علميا أنه استطاع أن يرصد أسماء أفراد الفريقين المتحاربين وعائلاتهم وقبائلهم بل ودور بعضهم في هذه المعركة . التى لها وضعها الخاص في التاريخ الإسلامى . حيث غيرت النظرة إلى المسلمين كقوم مستضعفين أجبروا على ترك ديارهم والحماية بغيرهم لضعفهم إلى قوة تستطيع بأمر الله أن تردع أكبر قوى

الصراع في منطقة الجزيرة العربية في العالم القديم ، وأن تكون هذه المعركة بداية لإنتشار الإسلام والدعوة اليه علنا بعد أن كانت خلسة . يطارد من يفعل ذلك شر مطاردة ، وأن تصبح قريش متوجسة خيفة على تجارتها التي تمر من مكة إلى الشام وبالعكس على المسلمين المتمركزين في يثرب أى في طريقهم . وهذا يعنى إنبهار لإقتصاد قريش القائم على هذه التجارة . كان يكفى ابن هشام فخرا علميا تحديده هؤلاء الذين صنعوا هذا النصر أحياء أو شهداء . ثم المواجهين لهم من مشركى قريش . إلا أن هناك فخر علمى ربما يتأمله من يتوقف لحظة أمام هذا الثبت . واعنى تمييزه دون أن يكتب ذلك بين القتلى من الطرفين . فهو يعتبرهم شهداء عند المسلمين لأنهم قتلوا في سبيل الله عملا بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلِكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ، تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ... ﴾ وقوله تعالى أيضا : ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فرحين بما آتاهم الله من فضله . ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

وعملا بقول رسوله عليه الصلاة والسلام الذى رواه الترمذى ومنها هذا الحديث الذى يسجله ابن كثير بأن الرسول ﷺ لما رأى جابر بن عبد الله مغتما ومهتما لاستشهاد أبيه في غزوة أحد قال له النبى ﷺ مطمئنا ومبشرا : « ألا أخبرك ما قال الله لأبيك » فقال جابر : قلت بلى ، قال النبى ﷺ : « ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وأنه كلم أباك

كفاحا (أى مواجهة) » فقال له رب العزة سبحانه وتعالى : « سلنى أعطك » قال الشهيد : « أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية » فقال سبحانه وتعالى : « إنه قد سبق من القول بأنهم اليها لا يرجعون » قال الشهيد : أى ربى فأبلغ من ورأى (أى ابليهم) » فنزل قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فالشهيد سعيد باستشهاده ويتمنى لو أعيد إلى الدنيا مرة أخرى ليكون شهيدا مرة أخرى . أو قوله ﷺ فى شأن الشهيد ما يسجله البخارى عن رواية أنس ابن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله على الأرض من شىء إلا الشهيد... يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » .

فلا عجب اذن أن يميز ابن هشام فى السيرة بين قتلى الطرفين . حيث نراه يضع اسماء القتلى من المشركين تحت عنوان « من قتل بيدى من المشركين » لأنهم قتلوا فى سبيل الشرك وليس فى سبيل الله . وليس الذى يقتل وهو يناصر الله ورسوله كالذى يقتل وهو يناصر رؤوس الكفر . وليس الذى يقتل لنشر دين الله كالذى يقتل وهو يمنع من نشر هذا الدين . وتلك ملاحظة مشكورة من ابن هشام حتى وإن كان كتب الاسماء هكذا مجردة تاركا للقارىء أن يدرك ما يريد أن يقول دون أن يقول . حتى لا يخرج عن وظيفته كمؤرخ ومسجل لروايات لا يتدخل فيها .

ونظرة أخرى إلى هذا الثبت العلمى . نجد أن البديون الذين حضروا من المسلمين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر وثلاثمائة (٣١٣) . وأن

الذين اشتركوا في الحرب خمسة وثلاثمائة (٣٠٥) وتختلف ثمانية سنعرف أسباب تخلفهم بعد قليل . وهؤلاء الذين اشتركوا بالفعل في الحرب كانوا على النحو التالى سبعة وثمانون مجاهدا من المهاجرين في مقدمتهم النبي ﷺ وباقي عدد المشتركين في الحرب كانوا من الأنصار أوس وخزرج وهم جميعا مهاجرين وأنصار من القادرين على حمل السلاح تحت قيادة النبي ﷺ .

وأما المتخلفين عن إدراك هذه المعركة فكانوا ثمانية من المهاجرين ثلاثة في مقدمتهم عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى اضطر بأمر من النبي ﷺ أن يبقى مع زوجته السيدة رقية بنت الرسول في ساعات احتضارها الأخيرة . وإثنان هما طلحة بن عبيدة وسعيد بن زيد اللذين بعثهما النبي ﷺ لاستطلاع أخبار العدو . وأما المتخلفين الخمسة فإثنان منهما اصيبا بكسر في الطريق أقعدهما عن المضى وهما « الحارث بن الصمة » و « خوات ابن جبير » والثلاثة الباقين من الانصار تخلفوا لمسؤوليات أُلقيت على عاتقهم إبان غياب النبي ﷺ عن المدينة . كأن يخلف « أبو لبابه بن عبد المنذر » على المدينة و « عاصم بن عدى » خلفه على أهل العالية ، و « الحارث بن حاطب العمرى » قام بمهمة كلفه بها النبي ﷺ .

ونظرة أخرى إلى سجل شهداء المسلمين ، وقائمة قتلى المشركين نجد أن الشهداء أربعة عشر . ستة من المهاجرين هم « عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف » ، و « عمير بن أبى وقاص » الذى استشهد وهو لم يزل في السادسة عشر من عمره ، و « ذو الشمالين بن

عمر بن نضله الخزاعي « و « عاقل بن البكير الليثي » و « مهجع » مولى
عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وصفوان بن بيضاء « واستشهد من
الانصار ثمانية فى مقدمتهم شقيقان من بنى النجار هما « عوف بن عفراء »
و « معوذ بن عفراء » .

ومن قتلى المشركين وعددهم سبعون قتيلا فى مقدمتهم
« أبو جهل » واسمه « عمرو بن هشام بن المغيرة بن مخزوم » أحد رؤوس
الكفر فى قريش : والذي ضربه معاذ بن الجموح ففقط رجله . ثم ضربه
معوذ بن عفراء فجرحه جرحا تعذر عليه القيام من بعده . ليجهز عليه
عبد الله بن مسعود . فكان أبو جهل اشترك فى قتله ثلاثة من المؤمنين .
كذلك قتل أخو أبو جهل « العاص بن المغيرة بن مخزوم » بيد عمر بن
الخطاب بالاشتراك مع يزيد بن عبد الله . ومن بنى أمية قتل خمسة مما أوغر
قلوبهم على النبى وعلى المؤمنين خاصة الامام على بن أبى طالب . وهؤلاء
الخمسة هم : « حنظلة بن أبى سفيان بن حرب بن أمية » شقيق معاوية
ابن أبى سفيان حيث اشترك فى قتله ثلاثة من المؤمنين هم زيد بن حارثة ،
وعلى بن أبى طالب والحزمه بن عبد المطلب رضى الله عنهم . و « عبيدة بن
سعيد بن العاص بن أمية » وقتله الزبير بن العوام ، و « العاص بن أمية »
وقته على بن أبى طالب رضى الله عنه ، و « عقبه ابن عمرو بن أمية »
وقته عاصم بن ثابت رضى الله عنه ، و « أمية بن خلف » وقتله بلال
مؤذن الرسول حين رآه . وكان أمية هذا قد عذب بلالا إذ كان يخرج به إلى
بضاء مكة (أى أكثر مواضع مكة حرارة) فيضجعه على ظهره ويأمر :

بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليرده عن الإسلام فيقول بلال كلمته المشهورة « أحد ... أحد » فعندما رآه بلال صاح : « أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا » وحاول بعض المسلمين رده عن قراره والاكتفاء بأسره . إلا أن بلالا صرخ بأعلى صوته : « يا أنصار الله ! رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا » ولم ينصرف عنه حتى أجهز عليه ... وغير هؤلاء القتلى ما يتم السبعين قتيلا . بل إن ابن هشام يضيف أبو لهب إلى هؤلاء السبعين مقررًا أنه وإن كان لم يشترك في المعركة إلا أنه مات عندما سمع بهزيمة قريش أمام النبي ﷺ والمؤمنين .

كذلك ينشر ابن هشام قائمة بأسماء أسرى المشركين في بدر تنصدها أسماء من بنى هاشم بن عبد مناف منهم « عقيل بن أوى طالب ابن عبد المطلب » شقيق على بن أوى طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب « ابن عم النبي ﷺ وغيرهم .

والملاحظة الأخيرة التي يمكن أن يلحظها قارئ ابن هشام في سيرته أن وسط الوطيس الذى يحفه ملك الموت ليقطع الرقاب كان محمد ﷺ كأى فرد من الذين يجاهدون فى سبيل الله ، كذلك كان الحمزة أسد الله ورسوله ، والامام على كرم الله وجهه يخوضان وطيح المعركة وقد نسي كل منهما نفسه فأمتلا الجو بالغبار ، وفصلت سيوف المؤمنين أجساد المشركين حتى كانت الهامات تطير من أجسادها . وقد كشفت أمامهم حجب الزمان . يزيدهم الله إيمانًا وتثبيتًا . حتى لكأن الواحد منهم إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوه من المشركين تحركه قوة الله التى وعد رسوله بها والمؤمنين . ما أحوجننا إلى تدبر مثل هذه المعركة من جديد □

المشركون
يعلمون
المؤمنين
الكتابة

وكما رأينا من إهتمام ابن هشام بالسيرة النبوية ، في تسجيله لأسماء
وقبائل أسرى معركة بدر من المشركين . فإن بعض الكتب قديمها مثل
« عيون الأثر » لابن سيد الناس ، و « إمتاع الاسماع » للمقرئ وحديثها
مثل كتاب « تحقيق النصوص ونشرها » للأستاذ عبد السلام هارون ...
وغيرها من الكتب التي إهتمت بموضوع تعليم الكتابة ، وكيف كانت على
أيدى المشركين من أسرى بدر ... حيث رأى النبي ﷺ أن إجادة الاسير

للكتاباة وتعليمها لعدد من المسلمين يعد فدية له من الاسر . وتلك فضيلة وفضل لا ينكرهما إلا جاحد يتجاهل ما للكتاباة من أثر كبير ليس في نقل كتاب الله وحديث نبيه الكريم فحسب ، وإنما أيضا لها أثر كبير في نقل وحفظ التراث العربى والإسلامى بعد ذلك .

* * *

لكن الحديث عن الكتاباة كفدية من الاسر قد يسبقه حديثا عن أسرى أول حرب فى الإسلام . وهى بدر الكبرى . هؤلاء الاسرى الذين كانوا موضوعا لهجم بعض المستشرقين . عندما توقفوا عند جانب معين . وهو الخاص بقتل أسيرين فى الطريق من بدر إلى المدينة . هما النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط .

ورغم أن هذا العمل حدث بغير أمر من النبى ﷺ كما تقرر كتب السيرة قديمها وحديثها ، وأن النبى ﷺ وأصحابه لم يصنعوا للأسرى نظاما ... على مقتضاه يكون قتلهم أو فداؤهم أو استرقاقهم ، ورغم أن هذين الأسيرين - بالذات - كانا على المسلمين أيام مقامهم بمكة شرا مستطيرا ، فكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعون وكل ما لا يستطيع أن يتصوره مستشرق يتحدث بعد أربعة عشر قرنا من وقوع بدر ... إلا أن هؤلاء المستشرقين تركوا كل الصور الإنسانية المضيئة لمعاملة المسلمين للأسرى فى هذه الموقعة بالذات . وتوقفوا عند هذه الجزئية متساءلين : أليس فى قتل هذين الأسيرين ما يدل على ظمأ هذا الدين

الجديد - الإسلام بالطبع - إلى الدم . ظمأ لولاه ما قتل الرجلان ؟ و...
كان من الأكرم للمسلمين بعد أن انتصروا في معركة بدر أن يردوا الأسرى
وأن يكتفوا بالفى الذى اغتتموه ؟

وغيرها من تساؤلات تريد أن تثير فى النفوس إشفاقا لم يكن يومئذ
له موضع ، كما أنه ليس له مبرر الآن فى ظل ما يحدث من مجازر وسفك
الدماء فى بلاد هؤلاء المستشرقين ... أقول ليس له موضع فى الماضى ،
ولا مبرر فى الحاضر ... اللهم إلا إذا كان وسيلة للنيل من الإسلام ونبيه
ﷺ بالحديث عن جزئية وترك بقية الجزئيات . ولهذا وجبت الإشارة إلى
ما تم من مناقشات بين النبى ﷺ وأصحابه فى شأن أسرى بدر .
وما حدث من مواقف إنسانية للنبي الكريم .

لقد حدثتنا كتب السيرة فى مقدمتها ما سجله ابن هشام وغيره
من القدماء وما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل فى « حياة محمد » وغيره
من المحدثين عرب أو أجنب . عن معاملة النبى ﷺ لأسرى بدر ، حيث
فرقهم بين أصحابه قائلا : « استوصوا بهم خيرا » لبدأ عليه صلوات الله
وسلامه التفكير فيما يصنع معهم ؟ أفقتلهم أم يطلق سراحهم بعد أن
يأخذ منهم الفداء المشروع وقتئذ ؟ إن هو قتلهم لتسبب فى اراقة الدماء
لدينه السمح الذى من أجله بعث رحمة للعالمين ، ولأثار فى نفوس ذويهم
من قريش عداء ربما هدا لو أنهم إفتدوهم ! ثم إن من هؤلاء الأسرى الاشداء
فى الحرب الأقوياء فى النضال ... ممن امتلأت بالحق والضغينة نفوسهم
عد هزيمتهم المنكرة فى بدر وما لحقهم من عار الاسر . فإن هو أطلق
إحهم وقبل منهم الفداء كانوا عليه حربا ضروس !

وكعادته في المشورة .. عرض النبي ﷺ الأمر على المسلمين .
 خصوصا وأن المسلمين قد خالطوا هؤلاء الاسرى فآنسوا منهم طمعا في
 مزيد من الحياة في مقابله دفع الفدية . ولهذا فكر هؤلاء الاسرى وقالوا :
 لو بعثنا إلى أبي بكر (رضى الله عنه) فإنه أوصل قريش لأرحامنا ،
 وأكثرهم رحمة وعطفا بها . ولا نعلم أحدا أن يثر عند محمد (ﷺ) أكثر
 منه . ويعثوا إلى أبي بكر فقالوا له : « يا أبا بكر . إن فينا الآباء والاخوان
 والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب . كلم صاحبك (يقصدون النبي
 الكريم) يمين علينا أو يفادنا » فوعدهم أبو بكر رضى الله عنه خيرا .

وفي نفس الوقت خافوا أن يفسد عليهم عمر بن الخطاب رضى الله
 عنه بشدته أمرهم فأرسلوا اليه . ليأمنوا جانبه ، أو على الأقل يحميده .
 فجاءهم . فقالوا له مثلما قالوا لأبي بكر : فنظر اليهم وقال لهم « لا ألوكم
 شرا » ثم انصرف إلى النبي ﷺ فوجد أبا بكر رضى الله عنه والناس حوله .
 وأبو بكر رضى الله عنه يقول له : « يارسول الله ! يأبى أنت وأمى . وقومك
 فيهم الآباء والأبناء ، والعمومة وأبناء العمومة والأخوان ، وأبعدهم منك قريب
 فأمنن عليهم ، من الله عليك أو فادهم قوة للمسلمين . فلعل الله يقبل
 بقلوبهم اليك » ثم قام فتنحى ناصية . وسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه .

وجاء عمر رضى الله عنه . وجلس مجلس أبي بكر رضى الله عنه .
 وقال : « يا رسول الله : هم أعداء الله كذبتك وقاتلوك وأخرجوك . إضرب
 رقابهم . فهم رؤوس الكفر وأئمة الضلال . يوطيء الله بهم الإسلام ويدل
 بهم الشرك » ثم قال عمر رضى الله عنه : « يارسول الله ! أطلعنى فيما أشير

به عليك . فإني لا آلوك نصحا . قدّم عمك العباس فأضرب عنقه بيدك ،
وقدم عقيل ابن أبي طالب الى أخيه (على بن أبي طالب) يضرب عنقه ،
وقدّم كل اسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله » فسكت رسول الله ﷺ
ولم يجبه فأنصرف عمر .

فجاء أبو بكر رضى الله عنه ليضيف إلى ما قاله : « هم
عشيرتك ، وقومك لا تكن أول من يستأصلهم . وأن يهديهم الله خيرا من
أن يهلكهم » ولم يرد رسول الله ﷺ . فأنصرف أبو بكر . ليقبل عمر
رضى الله عنه ويأخذ مجلسه للمرة الثانية ويضيف : « يارسول الله ما تنتظر
بهم . أضرب أعناقهم . يارسول الله أشف صدور المؤمنين فهم لو قدروا
منا على مثل هذا ما أقالونا أبدا » .

* * *

ولم يرد رسول الله ﷺ وقام من مجلسه ودخل قبهته دون أن يرد على
الصحابيين الجليلين . بينما الناس بين مؤيد ومعارض للرأين . فالبعض
يقول : « القول ما قال أبو بكر » . والبعض الآخر يقول : « القول ما قال
عمر » إلى أن خرج النبي ﷺ وقال للناس أجمعين : « ما تقولون في
صاحبيكم هذين ؟ دعوها فإن لهما مثلا . مثل أبي بكر في الملائكة
كمثل ميكائيل ينزل برضا الله وعفوه على عباده ، ومثله في الأنبياء كمثل
إبراهيم حين قال : ﴿ فمّن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور
رحيم ﴾ وكعيسى إذ يقول : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك
أنت العزيز الرحيم ﴾ .

ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل . ينزل بالسخط من الله

والنقمة على أعداء الله ، ومثله في الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعا . أو مثل موسى إذ يقول : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴾ .

ثم قال رسول الله ﷺ : « وإن بكم عيلةٌ فلا يفوتكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق » وأنطلق رسول الله ﷺ إلى حيث الأسرى فالقى نظرة عليهم ثم قال : « لو كان مُطعم بن عدى حيا لوهبت له هؤلاء ... » متذكرا هذا الرجل الذي أجاره وبسط حمايته عليه ، ومنع عنه أذى قريش وإن لم يدخل في دينه . إنه عليه الصلاة والسلام لا ينسى هذه اليد ، وأنه في هذه اللحظة التي يملك فيها رقاب الذين أجبروه على الهجرة ورفضوا حتى أن يظل بجوارهم وخبروه بالقتل أو الهجرة ولم يجبروه حين طلب إنه هنا يتذكر فضل « مطعم بن عدى » ويقول لو كان حيا لجازاه بأن يهب له أسرى بدر . خلق عظيم من نبي كريم لا ينسى في لحظات النصر أصحاب الفضل .

وسار رسول الله ﷺ إلى أسيره . هو عمه العباس وقال له : « افدى نفسك يا عباس ، وإبنى أخويك عقیل بن أبی طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقبة بن عمرو فإنه ذو مال » فقال العباس : « يارسول الله إني كنت مسلما ولكن القوم استكروهني » .

إن العباس هنا يقر بإسلامه . ولكن ذلك سيفسد أهمية دوره في بقائه بمكة ليد المسلمين بأخبار المشركين الذين يعيش بينهم فقال له النبي

ﷺ : « الله أعلم بإسلامك إن يكن ما قلت حقا الله يجزيك به ،
وأما ظاهر أمرك ، فقد كان علينا ، فأفند نفسك » وسار في طريقه .

وتوقف رسول الله ﷺ عند « أبي عزة عمرو بن عبد الله
الجمحي » وكان شاعرا فقال له أبو عزة : « إن لي خمس بنات ليس هن
شيء . فتصدق بي عليهن يا محمد اعطيك موثقا ألا أقاتلك ولا أكثر عليك
أبدا » فأطلق سراحه ليعود إلى بناته غير مصدقا . وأمثلة انسانية أخرى
لمعاملة النبي الكريم للأسرى .

* * *

ظل المسلمون في تشاورهم زمنا من بعده انتهوا إلى قبول الفداء .
وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن
في الأرض . تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ .

واتخذت فدية الأسير صورا كان من بينها قيام الأسير بتعليم الكتابة
لعشرة من المؤمنين . وكانت الكتابة شيئا جديدا فالعرب كانوا قوما أميين لم
تنتشر الكتابة بينهم إلا مع الإسلام وتوجيه من النبي ﷺ بعد معركة
بدر . فكان زيد بن ثابت كاتب رسول الله أحد هؤلاء الذين علمهم
أسرى بدر ، وكان « أبي بن كعب » أول أنصارى كتب للرسول
« وعبد الله بن أبي سرح » أول من كتب له من قريش . وكان عدد من
كتب لرسول الله ﷺ زهاء أربعين كاتباً . وكان هؤلاء الكتاب يكتبون
القرآن . واثموا كتابته حتى بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى .

وكان من بينهم من كتب الحديث النبوى الشريف . بعد أن استقر الأمر على تدوينه . فى عقب هذه الفترة التى أرادها النبى ﷺ ... حتى لا يختلط الوحى بحديث الرسول ﷺ فى أثناء نزول هذا الكتاب الكريم .

والحق أن الاستفادة المبكرة من المشركين فى تعليم المسلمين الكتابة أمر حضارى يدركه أولو الأبواب . ويعطونه حق قدره خصوصا إذا تذكروا أن استخلاص الخير مجسدا فى الكتابة من أشرار قريش عمل لا يستطيع التفكير فيه إلا نبى كريم مثل محمد ﷺ . وأن تعليم الكتابة كان كبير الأثر بعد ذلك فى تدوين وحفظ الكتاب والسنة وأشعار العرب ومآثرهم فى الجاهلية والإسلام .

إن إعتبار تعليم الكتابة بمثابة إفتداء للأسير من المشركين أفضل رد على الذين يخوضون فى موضوع أسرى بدر □

وفاة ابنته ذات الهجرتين

وكان ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله عنه أحد ثلاثة من المهاجرين الذين تخلفوا عن الاشتراك في الجهاد في سبيل الله يوم بدر - كما رأينا - حيث بقى ساهرا على زوجته المحتضرة . ذات الهجرتين . هجرة أولى بدينها الأسلامى من مكة إلى الحبشة ، وهجرة ثانية بدينها أيضا من مكة إلى المدينة ، بقى الزوج الوفى إلى جوار بنت رسول الله ﷺ وقد اشتد بها المرض ، وطاف على المكان شبّح الموت ... بقى هكذا بأمر من رسول الله ﷺ .

والحق أن كتب السيرة النبوية قد أفاضت في الحديث عن وفاة رقية رضي الله عنها . لما يكتنف هذا الحادث من المعاني الدينية والإنسانية الممتزجة معا . فهي رسول الله ﷺ يتوجه إلى بدر مع المؤمنين طلبا للجهاد في سبيل الله ، وبنته تحتضر ، وأنها لن تنجو مما هي فيه إلا إذا أدركتها مشيعة الله تعالى الذي يحیی العظام وهي رميم . ومع هذا لم يتخلف أو حتى يتأخر لحظة عن نداء الجهاد في سبيل الله ، وأنه ﷺ يغلب حبه لنصرة دين الله على حبه لابنته التي تحتضر . ونرى الزوج عثمان بن عفان . هذا الصحابي الجليل لم يتوان لحظة في العمل من أجل الإسلام فضحى بماله وعشيرته وحرته وموطنه من أجل الإسلام . نراه يخشى أن يقع المحظور ويطلب منه رسول الله ﷺ أن يبقى إلى جوار زوجته في لحظاتها الأخيرة . فيحجب عنه شرف الجهاد في سبيل الله . هو حقا يحب زوجته حبا ملك أقطار نفسه . وكيف لا يحبها وقد اختارها وهي كريمة أشرف خلق الله ... لكن مع هذا فحبه لله تعالى أكبر وأكثر وأعظم . ولذلك فهو يبقى إلى جوارها طاعة لأوامر رسول الله ﷺ . ونرى المحتضرة الجلييلة نفسها . ترنو ببصرها إلى الزوج المجاهد العظيم . وقد تقاعس عن الجهاد في سبيل الله ليبقى ها هنا بجوارها . فيسأله صمتها البليغ وكأنها تقول له : لما تبقى في المدينة والقوم عنها يخرجون طلبا للجهاد ؟ هي تعلم حتى في ساعات احتضارها أن الأب الحبيب عليه أفضل الصلاة والسلام يتركها مضطراً ذلك الإضطراب الجميل . لأن معناه الجهاد في سبيل الله فلماذا لم يصنع الزوج الكريم مثل ما صنع الوالد الحبيب ؟؟ ، ونرى الشقيقتين أم كلثوم

وفاطمة الزهراء وقد وقفنا إلى جوار شقيقتهما المحتضرة عليهن رضوان الله ... لا حول لهن ، ولا قوة ، ولا معين . إلا رحمة الله التي تسع كل شيء . وقفنا ننظران إلى المحتضرة في حب وحنان عاجزان ويزيد من عجزهما المعنى الأكبر هو أن الجميع رجالا ونساء في هذه الساعة يجاهدون في سبيل الله وهل هناك ما هو أجل وأحب من الجهاد في سبيل الله البشرى كل البشرى لها إن هي قبضت إلى الرفيق الأعلى هذه الساعة ... مشاعر سامية تختلط بشعورهن الإنساني الناجم عن لوعة فراق الأخت الرقيقة الحانية . وهذه نساء يثرب يتوفدن إلى بيت رسول الله ﷺ للسؤال عن المحتضرة الجليلة . وقد لفتن مشاعر متباينة ... القلق على الآباء والأزواج والأبناء والأخوة الذين يلاقون المنون على يد جبابرة قریش وصناديدها من المحاربين ، ومشاعر أخرى هي معنى الأعزاز والتقدير لهذه المحتضرة بنت النبي ﷺ وزوجة ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه ... وهى تفارق الحياة في هذه اللحظات الحاسمة وها هم رجال المدينة مؤمنين أو مشاركين العزاء . يحملون رفات رقية الجليلة الطاهرة ... إلى مثواها الأخير . وهم أيضا في مشاعر متباينة . ففي هذه الساعة يلتقى الجمعان . ولا يعلمون وهم يحملون الرفات الطاهرة هل ستكون رفاتهم هى التالية ؟ مَنْ بعد أن فتحت مدينتهم يثرب من خلال انصارها النيران على جبابرة الحرب وسادة العرب من القرشيين ؟ .

مشاعر كثيرة دينية وإنسانية ممتزجة ومتباينة ... إلا أن واقع الحال يقرر بأن ثالث الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه

بقى إلى جوار الزوجة الحبيبة ، وقد اقتحمته الذكريات الحبيبة أيضا .
ها هو يتزوجها - عليهما رضوان الله - بعد أن طلقت مع أختها أم كلثوم
رضى الله عنها من زوجها إبننا أئى لهب بأمر من القرآن الكريم . حيث
نزلت في حق أبو لهب الآية الكريمة : ﴿ تبت يدا أئى لهب وتب ﴾ حيث
فرّق الشرك بين كل زوجين . وها هى رقية تقبل عثمان رضى الله عنهما ،
وهى بنت أشرف الخلق زوجا لها ، وها هو عثمان يهاجر معها إلى الحبشة
فرارا بدينهما من الفتنة والتعذيب . هاجرا وقد كانا قريبي عهد بالزواج .
وها هو يتذكر وجه رقية المشرح الصبوح وقد زاده الانفعال جمالا وبهاءا ،
حين كانت تصغى إلى جعفر بن أئى طالب وهو يحاور النجاشى ملك
الحبشة ، ويرى في أغوار نفسه صوتها الرصين وهى تحدّث من معها من
المهاجرات المؤمنات . ذلك الحديث الذى يريح النفس ويهفو إليه القلب ،
ويفتح أبوابا للرجاء . كذلك لعله يتذكر يوم وفاة أم المؤمنين خديجة رضى
الله عنها وكيف خيم الحزن على أقطار نفس هذه الزوجة الحبيبة ، وكيف
كان يواسيها . مع أنه كان مثلها مقدرا لفداحة المصاب . وكيف لا يقدر
أوّ لا يحزن ... على سيدة نساء العالمين ، وعلى بنتها الزوجة الحبيبة .. تلك
التي لف الحزن والالم ذلك الجسد النحيل حتى أصبحت مثل ريشة في
مهب الرياح . وتذكر أيضا يوم ركبا معا البحر عائدان ومعهما الصحاى
الجليل الزبير بن العوام وزوجته هند بنت أئى أمية . وكيف كانت رقية
سعيدة تطل الفرحة من محياها للعودة إلى الوطن الحبيب والأكثر
إلى الأب الحبيب رسول الله ﷺ فكم طال فراق الحبيين الوطن والأب .

وهل ينسى عثمان رضى الله عنه تلك اللحظة التى ارتمت فيها رقية فى أحضان الوالد الكريم . وهو يغمرها بعطف وحنان جديران بمقدم الإبنة العزيزة التى هاجرت من وطنها وذويها بسبب الإيمان برسالته !

وبين آونة وأخرى كان الزوج الجليل ينظر إلى ذلك الوجه الجميل الذى أصبح ذابلا يعلوه الاصفرار ، ويسمع بقلبه تلك الانفاس المضطربة التى تقاوم الاحتباس والتى تعلن عن قرب النهاية الحزينة ... تُرى هل انتهت الذكريات ؟ كيف وهم من الصور كل واحدة تتزاحم مع أخرى . فهل ينسى مثلاً هجرتهم الثانية من مكة إلى المدينة . يوم أذن الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بهذه الهجرة . وكيف توجت هجرتهم فى المدينة بما يبعث الفرحه والأمل ... يوم أنجبت له رقية رضى الله عنها طفلهما عبد الله . وكيف لا يكون مستبشرا قرير العين . وقد أصبح أبا لطفل جده رسول الله ﷺ . لكن يبدو حقا أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن . لأن السعادة لم تدم . فقد اختطف الموت وحيدهما عبد الله ... إنه يتذكر يومها الجد العظيم محمد رسول الله وقد وضع الحفيد الطاهر فى حجره وهو يردد هامسا : « يرحم الله من عباده الرحماء » . لقد حزن الأب لفقدان إبنه من نسل خير البشر ، ومرضت الأم وأستفحل بها المرض . الأمر الذى جعل زوجها يبقى إلى جوارها متخلفا عن الجهاد فى سبيل الله .

وفى الجانب الآخر فى بدر يلتقى الجمعان فى معركة ضارية تحدد المصير بين الحق والباطل . وهنا فى المدينة يلف الجميع الصمت الذى يسبق الموت ، فهى رقية رضى الله عنها تلفظ الأنفاس الأخيرة ،

والجميع حولها تعتصرهم الأحزان والآلام الجميع هنا عثمان زوجها وأم كلثوم والزهاء شقيقتها حولها كل في فجيعة . فجيعة الزوج عثمان رضى الله عنه في زوجته فجيعة واحدة بفقدان الزوجة الحبيبة والثانية لإنقطاع نسبه برسول الله . كذلك فجيعة أختها فجيعة واحدة بسبب فراق الشقيقة الغالية والثانية بسبب الاحساس الحاد الذى يساورها يومئذ حيث تموت رقية دون أن ترى أبيها أو يراها . أهكذا تفارق الدنيا رقية ابنة الرسول وذات المهجرتين في سبيل الله دون أن يطمئنهما رسول الله وبيارهما بالنظرة الأخيرة ؟ أهكذا يعود الأب الكريم وفرحة النصر تملأ كيانه ليفاجئ بحبر اليم ينتظره ... إن الجميع حولها يعتصرهم الأسى والألم ويفتتهم التوتر والقلق ... وهى أمامهم تعاني سكرات الموت .

وأخيرا تهمس الشفاعة الرقيقة الذابلة همسا متقطعا بالشهادة التى تكون هى آخر صلة لها بالدنيا ومن عليها . عندئذ تجهش أم كلثوم باكية ، وتصرخ الزهاء « أبتاه ... أبتاه » ومن غيره عليه أفضل الصلاة والسلام يكون اسمه نداء النجدة للمحتاجين ؟ من غيره عليه الصلاة والسلام بمستطيع أن يمسح آلام المنكوبين ؟ ويضرب عثمان رضى الله عنه كفا بكف متمتا باكيا متألما : ﴿ أنا لله وإنا اليه راجعون ﴾ .

وتجهز رقية رضى الله عنها تجهز وتدفن في رمضان السنة الثانية للهجرة ... في غيبة أبيها الذى كان هناك في ميدان الجهاد في سبيل الله □

قلادة
لخديجة
تحرر
أسيرا

وكان أبو العاص بن الربيع ... زوج السيدة زينب بنت الرسول ﷺ ، ضمن أسرى المشركين يوم بدر ... لقد أسره الأنصارى « خراش ابن الصمة » ، لتفديه زوجته بنت الرسول ﷺ بقلادة كانت والدتها ، وخالته في الوقت نفسه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قد أهدتها إياها يوم زواجها منه .

أما كيف ذلك ... فلندع ابن هشام والدكتور هيكال والسحا،

والشرقاوى وعبد الوهاب حموده وغيرهم ممن إهتموا بالسيرة وأعادوا كتابتها
يحدثونها من خلال كتبهم .

وفى الطريق من بدر إلى المدينة كان أبو العاص بن الربيع ينساق مع
رھط الأسرى . ولكنه رغم ذلك كان مقدرا مستأثرا من الأنصار . حيث
كانوا يفضلونه على أنفسهم راضين . فإذا وقعت قطعة الخبز فى أيدى
أحدهم دفعها اليه ، وإذا ظفر أحدهم بشرة ماء قدمها له راضيا ، وإذا
سازوا كانوا يحملونه ويمشون ، وإذا طلب شيئا كانوا يلبونه مسارعين . مما
جعل أبو العاص يفكر فى ذلك الدين الذى جاء به والد زوجته محمد
رسول الله ﷺ . فهو يعرف الأنصار من أوس وخزرج قبل الإسلام . مما
كانوا على مثل ذلك الخلق المتين . إذن فالذى فعله محمد عليه السلام كان
معجزة آتت ثمارها فى بضعة شهور . وينقاد أكثر وأكثر إلى تفكير سليم
مبرا عن الأهواء . فإذا بفؤاده يهوى إلى ذلك الدين القيم الذى يصنع
مكارم الأخلاق . لكن كيف وكيف وجذوره ما برحت ضاربة فى غياهب
جبروت قريش وجهالتها .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله ﷺ بينهم فى مكة يزعم
أنه نبي . فرأى آبائه وأعمامه وأبناء عمومته من سادات قريش يكذبونه
ويعدبونه ويتآمرون ليقتلونه بأيدي فتیان كل القبائل . ثم يتوجهون اليه ...
إلى أبى العاص قائلين : « فارق صاحبك بنت محمد ونحن نزوجك أى
إمرأة إن شئت ... من قريش أو غيرها » . وكان يرد عليهم قائلا : « لن
أفارق صاحبتى ، وما أحب أن تكون لى امرأة غيرها » .

لقد رفض أن يطلق ابنة محمد عليه الصلاة والسلام فهو يحب زينب
رضى الله عنها . كما يجل أباهما فيما بينه وبين نفسه . ولولا خشيته من أن
يقال إنه ما أسلم إلا خوفاً من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن
لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

“ * ”

قبل الإسلام تزوج أبو العاص بن الربيع من كبرى بنات الرسول
زينب رضي الله عنها . وكان من رجال مكة المعدودين مالا ، وأمانة ،
وتجارة ، وكانت خديجة رضي الله عنها خالته . فسألت رسول الله ﷺ أن
يوافقها على زواج أبو العاص من زينب رضي الله عنها . فزوجهما . وكانت
تعهده بمنزلة ولدها . فلما بعث أبو زوجته نبيا رسولا آمنت به زوجته وبناته
رضوان الله عليهن ، وبقي أبو العاص على شركه . وكان رسول الله ﷺ في
بدء دعوته لا يحل بمكة ولا يحرم . هو مغلوب على أمره ، فرغم أن الإسلام
فرّق بين زينب رضي الله عنها وبين زوجها أبي العاص . إلا أن رسول الله
ﷺ كان لا يقدر أن يفرّق بينهما . فأقامت بنت رسول الله ﷺ على
اسلامها وبقي هو على شركه . حتى هاجر الرسول صلوات الله وسلامه
عليه إلى المدينة . بقيت زينب رضي الله عنها مع زوجها في مكة . بقيت في
دار أبيها . وقد خلت دار أبيها ﷺ من كل الأهل والأحباب ، خلت
إلا من أطياف هؤلاء الذين هجروها كارهين . ولطالما وقفت زينب بهذه
الدار المقفرة المحشة تسأله : أين من كانوا بالأمس يملئون حياتهم وحركة .
أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم والزهراء ؟ وأين القاسم والطيب ؟
فأما خديجة وولداها القاسم والطيب فأبلى غير مآب ، وأما محمد وبناته رقية
أم كلثوم والزهراء فأبلى هجرة واغتراب .

وها هو أبو العاص يسير في صفوف أسرى الأنصار في طريقهم إلى المدينة . لكن خياله قفز به إلى مكة حيث غادر الزوجة الوفية ليحارب أباهما النبي الكريم . مع سفهاء قومه من المشركين . إنه وهو في غمرة حماسه لم يفكر في مشاعر هذه الزوجة العظيمة لكنه الآن وهو أسير يحس فداحة ما صنع ليته فكر في هذه الزوجة المخلصة ، وهى ممزقة الآن بينه وبين أبيها وقد استولى عليها خوف قاتل أن تفجع في أحدهما . هو على ثقة من أنها تحبه ، ولكنه لا يشك في عظم حبها لأبيها ... ليت أحد يحمل إلى هذه الزوجة العظيمة أن زوجها الحبيب بين يدي رسول كريم . ليسكن قلق نفسها ، وينقشع خوف قلبها وينزل بها الأمن والسكينة .

ويستقر - في المدينة - رأى رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم على إفتداء الأسرى ، ويقدم عمرو بن الربيع في فداء أخيه أوى العاص . فيقدم إلى رسول الله ﷺ ما بعثت به إبنته زينب رضى الله عنها في فداء زوجها مال ومعه القلادة المهداة لها من والدتها خديجة رضى الله عنها . ويتفرق الدمع في عيني رسول الله ويرق لهذه القلادة رقة شديدة . فهى بعينها قلادة الطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين . التى أول من صدقته حين كذبه الناس . أنه يذكرها على الدوام في أفراحه وأحزانه . ثم نظر إلى مَنْ حوله وقال فى صوت متهدج : « إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا عليها مالها فأفعلوا » فقالوا : « نعم يا رسول الله » فأطلقوه وردوا عليها الذى لها . على شرط أن يطلق زوجته رضى الله عنها فقد فرّق الإسلام بينهما . حتى أنه حين وصل الدار والتقى بالزوجة الوفية . نظر إليها وقال :

« تأمهي يازينب لتلحقى بأبيك » . ونظرت اليه وهي لا تكاد تصدق ما تسمعه حيث يؤكد ما يقول : « فرّق بيني وبينك الإسلام » لقد وعد وهو يعلم أن هذا الوعد يمزق قلبه . لكن وعد الحر دين عليه .

ورغم أن زينب رضى الله عنها كانت تغالب عواطفها بعد ما سمعت حديث زوجها إلا أنها قالت صادقة : السمع والطاعة لله ولرسوله » .

وبينا هي تتجهز للحاق بأبيها سيدنا محمد ﷺ لقيتها هند بنت عتبة التي قتل أبوها وعمها وأخوها يوم بدر فقالت لها : « ألم يبلغني يا بنت محمد أنك تريدين اللحق بأبيك ؟ » فقالت زينب رضى الله عنها حذرا : « ما أردت ذلك » فقالت هند : « أى بنت عم لا تفعل . إن كانت لك حاجة فى متاع ... أو مال تبلغين به أبيك فإن عندى حاجتك . فلا تضطنى (أى تستحى) منى فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال » قالت زينب رضى الله عنها : « والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكنى حضتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك . ثم تجهزت » .

وقدم لها « كنانة بن الربيع » أخو زوجها بعيرا فركبته وأخذ قوسه ، وخرج بها نهارا يقود بعيرها وهي فى هودج لها وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء ، وفكروا كيف تخرج ابنة محمد (ﷺ) من بينهم هكذا بسهولة . وخرجوا فى طلبها ، وكان أول من لحق بها هو « هبار بن الأسود » و « نافع بن عبد القيس » . فروعها « هبار » بالرمح وهي فى الهودج وكانت حاملا . فوقعت بهودجها على صخرة ، وغدت تنزف دما . وهنا وقف كنانة حاملا قوسه وقائلا : « أحلف بالله لايدنو اليوم منها رجل

إلا وضعت فيه سهما « فرجع الناس عنه . لكن جاءه أبو سفيان بن حرب وقال له : « أيها الرجل أكفف عنا نبلك حتى نكلمك » فكف . وأقبل أبو سفيان ومن معه وقال : « إنك لم تحسن ولم تصب . خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهارا وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد أبيها . فيظن الناس إذا أنت خرجت بإبنته اليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابنا . وأن ذلك منا وهن ، ولعمرى ما لنا في حبسها من أيها من حاجة ، وما فيها من ثأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الاصوات وتحدث الناس بردها . الحقها بأيها ... » .

ورأى كنانة بن الربيع أن يعود بها استجابة لتوسل أبي سفيان ، وحفظا لحياة زوجة أخيه .

وفيما كانت زينب رضى الله عنها فى طريق عودتها أجهضت ما فى بطنها وأصابها ضعف شديد . فلما وصلت دار أبى العاص هرع من فيه إليها يحملونها وهى غارقة فى دمهـا .

مرت بعض ليالى رمضان بمكة ولا حديث للناس إلا حيث الحرب والقتل والأسر والفاء . وغدا العباس (عم الرسول ﷺ) يتحدث بين قومه من القرشيين عما لقوا إبان أسرهم من الأنصار بالمدينة . ولم يسأله أحد : « لما فرق رسول الله - ﷺ - بين إبنته زينب وزوجها أبى العاص ولم يفرق بينه (العباس) وبين أم الفضل مع أن الحالة واحدة ؟ » فأبو العباس مشرك وزوجته أم الفضل مسلمة أيضا . ولو دار ذلك السؤال فى رؤوسهم لأيقنوا أنه على دين ابن أخيه ﷺ . وإنما ما بقى بينهم فتظاهرا بالشرك . إلا ليكون عينا عليهم للمسلمين .

وها هي زينب رضى الله عنها ، تسترد قواها ، ويهدأ الصوت عنها ، فيحملها كنانه بن الربيع ويخرج ليلاً إلى حيث يوجد زيد بن حارثة ومعه رجل من الانصار كانا ينتظرانها حتى أقبل كنانة بن الربيع وسلمها للرجلين . لينطلقا بها إلى رسول الله ﷺ . الذى يتقدم خافق القلب لاستقبال الأبنة العزيزة العائدة من دار الشرك إلى دار الإسلام .

وتصدق نظرة النبى ﷺ فى صهره أبو العاص بن الربيع . فها هو يصدق فيما وعد فور وصوله مكة . فيعمل جاهداً على رد زينب رضى الله عنها إلى والدها صلوات الله وسلامه عليه ، لتقيم هى بالمدينة ، ويقيم هو بمكة . حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص فى تجارة إلى الشام . وفى طريق العودة لقيته سرية من المسلمين ، فأخذوا ما معه بينما نجا هو بجلده . وأنظر حتى أسدل الليل ستائره . فدخل على زينب بنت رسول الله ﷺ . مستجيراً بها . وطالبا معاونتها . فطلبت ذلك من والدها صلوات الله وسلامه عليه . فقال بحنان بالغ : « أى بنية اكرمى مثواه . ولا يخلصن اليك فإنك لا تحلين له » .

وبعث عليه الصلاة والسلام إلى السرية التى استولت على مال أُمى العاص الذى إئتمنته عليه مكة وقال : « إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك ، وإن رأيتم . فهو فى الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به » . فقالوا : « يارسول الله : بل نرده عليه » .

واسترد أبو العاص المال ، وعاد به إلى مكة ، وأدى لكل ذى حق

حقه ثم قال : يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟
قالوا : لا فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما .

وهنا قال أبو العاص بن الربيع : فأنا أشهد أن لا اله إلا الله وأن
محمدا رسول الله . والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى
إنما أردت أن آكل أموالكم . فلما أداها الله اليكم وفرغت منها . اسلمت
وجهى لله ولرسوله .

وعاد إلى المدينة إلى حيث الزوجة المخلصة الوفية التى افتدته بأعلى
ما عندها ، وأعز ذكرى تركتها والدتها أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها وهى
القلادة □

زواجه من أم المساكين

وأم المساكين . هى السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ، ذكرت بهذه الصفة فى السيرة النبوية لابن هشام حيث قال : « وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم » وفى كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة قال : « فكان يقال لها أم المساكين لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم » وشبيه بذلك ما جاء فى كتابى « الطبرى » و « شذرات الذهب » أو فى الكتب الحديثة العربية منها وفى مقدمتها « حياة محمد »

للدكتور هيكل قال : « ولم تكن ذات جمال ، وإنما عرفت بطبيعتها وإحسانها حتى لقبت بأُم المساكين » أو الكتب الأجنبية حيث قال عنها بودلى فيما كتب عن أمهات المؤمنين : « وكانت طيبة خيرة » .

والملاحظ في هذه الكتب قديمها وحديثها أن أم المؤمنين لم تنل حظا كبيرا من أحاديث كتب السيرة النبوية شأنها شأن أمهات المؤمنين . فلا نجد حتى في الكتب القديمة وأبرزها السيرة النبوية لابن هشام أو الطبقات الكبرى لابن سعد أو تاريخ الطبري أو كتاب الإصابة في تمييز الصحابة وغيرها ... في الحديث عن هذه السيدة الجليلة إلا سطورا متفرقات . وبالطبع كان لذلك أثره في الكتب الحديثة التي إهتمت بتسجيل أحداث السيرة النبوية ، حتى تلك الكتب التي جعلت كل إهتمامها الحديث عن « نساء النبي » وفي مقدمتها ثلاثة كتب بنفس العنوان تقريبا « نساء النبي » لكل من الدكتورة بنت الشاطي ، والدكتور محمد بدر والاستاذ سعد هارون عاشور . لا يزيد الحديث عن هذه السيدة الجليلة في هذه الكتب عن صفحات تعد على أصابع اليد الواحدة .

وبعد تأمل طويل لهذه الحالة التي تكاد تنفرد بها أم المساكين زينب بنت خزيمة دون غيرها من أمهات المؤمنين تبين أن عدم الإطالة في الحديث عن هذه السيدة الفضلى يرجع إلى واحد من هذه الاسباب إن لم تكن جميعها :

١ - لأن حياة هذه السيدة كزوجة للنبي ﷺ لم تدم طويلا فمن الرواه من يقول أنها دامت شهرين وآخرون يقولون أنها دامت ثلاثة والبعض

الثالث يقول أنها لم تزد عن الثمانية شهور أى حياتها الزوجية مع النبي ﷺ لم تصل العام الواحد . وهو زمن قصير بالقياس إلى الفترات التى حظين بها مثيلاتها من أمهات المؤمنين كخديجة بنت خويلد أو عائشة بنت الصديق أو سودة بنت زمعه رضوان الله عليهن .

٢ - وربما كانت هذه الفترة القصيرة التى قضتها السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها فى بيت النبوة لها بريقها الخاص بالنسبة للكاتب أو المؤرخ . لو تخللتها أحداثا جلية كنزول الوحي مثلما حدث بالنسبة للسيدة خديجة أو الهجرة أو فتح مكة .

٣ - كذلك لم تكن السيدة زينب رضى الله عنها من نساء النبي اللاتى اشتهرن بالعلم أو حتى رواية الحديث عن النبي ﷺ مثلا كالسيدة عائشة رضى الله عنها التى اشتهرت بالفقه ورواية الحديث أو السيدة أم سلمة رضى الله عنها التى اشتهرت برواية الحديث .

٤ - لم يكن للسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ذرية من النبي ﷺ ، ولم تترك حتى بعد وفاتها ولدا لها يحمل اسمها بين أمهات المؤمنين رغم أنها ماتت فى سن الثلاثين . فلم يكن شأنها شأن السيدة خديجة أم القاسم الذى كان يكنى به النبي ﷺ وأم عبد الله الطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء رضى الله عنهم ، أو كزوجته عليه الصلاة والسلام مارية القبطية التى أنجبت إبراهيم رضى الله عنه . فمن هذه الزاوية بالذات ليست للسيدة زينب بنت خزيمة جاذبية تاريخية تضاف إلى غيرها من الفضائل فتخطف إنتباه الكاتب أو المؤرخ .

٥ - لم تكن السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ابنة واحد من صحابة رسول الله ﷺ . ممن حملوا معه عبء الدعوة الإسلامية وواصلوا الطريق من بعده عليه أفضل الصلاة والسلام . مثلاً كالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضوان الله عنهما أو كالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

٦ - لم يبنى زواج النبی ﷺ من السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها على سبب من الأسباب القوية التي تحطف لإنتباه الكاتب أو المؤرخ ومن هذه الأسباب جذب كبار القبائل بمصاهرتها كزواجه ﷺ من « سودة بنت زمعه » رضى الله عنها حتى يكون في هذا الزواج تأليف بنى عبد شمس اعدائه وأعداء بنى هاشم حيث كان ينتهى نسبها لأبيها أو تشریف لبنى النجار حيث ينتهى نسبها لأُمها . أو يكون الزواج بغرض التشريع كزواج المسلم من المسيحية أو اليهودية كزواجه عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية ، وصفية بنت حيى بن أخطب الإسرائيلية . أو أن يكون الزواج بغرض إبطال بدعة من بدع الجاهلية كتحریم زواج الأب من زوجة الابن بالتبنى كما حدث في زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها حين تزوجها النبی ﷺ من عتيقه ومتبناه زيد بن حارثة إبطالا لهذه البدعة المتوارثة عن الجاهلية .

٧ - كذلك لم تكن السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها قريبة من النبی ﷺ كصلة قرابته من زوجاته القرشيات . اللاتي يعتبرن بنات عمومته . وإنما كان نسبها رضى الله عنها مع النبی ﷺ يلتقى عند جدهم مضر . فكانت أبعد زوجاته القرشيات من ناحيه صلة القرابة .

إلا أن هذه الأسباب وغيرها لا تقلل من قدر هذه السيدة الجليلة . فحسبها أن تكون واحدة ممن كرمهن الله ورسوله بشرف الإقتران بالنبي ﷺ لتكون من بعد في التاريخ الإسلامي واحدة من أمهات المؤمنين .

والحديث عن السيدة زينب بنت خزيمة وغيرها من زوجات النبي ﷺ ربما يجزنا إلى الحديث عن الحكمة في تعدد الزوجات بالنسبة للنبي الكريم . وهى مسألة خاض فيها المستشرقون بجهل فاضح أو بغرض سيئ . ولو أنهم شاءوا الحقيقة وحدها بمنهج موضوعي . لدرسوا الحياة الاجتماعية للنبي ﷺ . وعندئذ كانوا أكثر تجنباً لهذا الجهل وذاك التعصب .

إن حياة النبي الاجتماعية - بصورة مختصرة - تنقسم إلى أربعة مراحل . أولها مرحلة العزوبة وكانت حتى الخامسة والعشرين ، والمرحلة الثانية بدأت من الخامسة والعشرين حتى الثالثة والخمسين وفيها تزوج السيدة خديجة بنت خديلد وبقى غير متزوجا سنتين بعد وفاتها رضوان الله عليها . والثالثة تبدأ من الخامسة والخمسين حتى الستين وفيها تعددت الزوجات لحكمة . حيث بدأت مع السنة الثانية للهجرة المعروفة في التاريخ الإسلامي بسنة القتال . وما بعدها من سنوات كلها حروب وفتوحات . وهنا وقع التعدد لأسباب كثيرة لم تكن - كما يرى الأستاذ عبد الوهاب حمودة - المتعة واحدة منها . وأى متعة هذه تلك التى تأتى بعد الخامسة والخمسين لإنسان كالنبي ﷺ انصرف لعبادة ربه ، والدعوة لدينه ،

والإعداد للمعارك والحروب ، وإقامة أول مجتمع إسلامي ، وبناء ما عرف بعد ذلك بخير أمة أخرجت للناس ! لو كانت المتعة في المقام الأول كما يدعى هؤلاء المستشرقون فلماذا لم تأت قبل الخامسة والعشرين ؟

إن أصدق شاهد وخير دليل في أن تعدد زوجاته كان له حكمة هو زواجه عليه أفضل الصلاة والسلام من السيدة زينب بنت خزيمة إن هذا الزواج في حد ذاته يؤكد سمو دافعه وأنسانيته . فقد كان بسبب ترملها بعد أن استشهد زوجها عبدة بن الحارث بن عبد المطلب في يوم بدر . هذا إلى جانب قيامها بدور في هذه المعركة حتى اتفقت أكثر الروايات على أنها بليت من الناحيتين بلاء حسنا ولهذا كان زواج رسول الله منها وهو قد تجاوز الخامسة والخمسين .

وقد اختلفت الروايات في شأن تاريخ زواجها . فمع أن هذه الروايات متفقة تماما على أن الزواج تم في شهر رمضان إلا أن الاختلاف كان في أي من الأعوام . مثلا نجد في رواية عن ابن الكلبي يقول : « فتزوجها النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثلاث . فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت في ربيع الآخر سنة أربع هجرية » بينما نجد الطبري يقول : « وفي هذه السنة - يقصد الرابعة - تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بني هلال في شهر رمضان ... » .

ويقول ابن العماد في شذرات الذهب في أخبار السنة الثالثة للهجرة : « في رمضان دخل النبي ﷺ بزَيْنَب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين ، وعاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت » .

على أى حال الذى يهمنا أن يكون تاريخ الزواج فى شهر رمضان وهو ما أتفق عليه الرواة . حيث خطبها النبى إلى نفسه ، فجعلت أمرها اليه ، فتزوجها وأصدقها إثنى عشر أوقية ونصف من الفضة ، وعاشت معه إلى أن توفيت . فصلى عليها رسول الله ﷺ . ودفنت فى البقيع إلى جوار أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن . وكانت هى الزوجة الثانية بعد السيدة خديجة بنت خويلد التى توفيت فى حياة النبى الكريم □

مولد سبطه الأكبر الحسن

وفي رمضان من العام الثالث للهجرة . وهو عام التمهيد في التاريخ الإسلامي أى التصفية والتطهير لقوله تعالى : ﴿ ولْيَحْصِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقِ الْكَافِرِينَ ﴾ إشارة إلى يوم أحد حين خرج مشركو قريش في الأيام الأولى من شوال حيث كانوا يستعدون طوال رمضان السنة الثالثة نفسها . خرجوا وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ليثأروا من المسلمين . لما أصابهم في يوم بدر وكان كما سنرى بعد قليل درساً مستفاداً لبعض المسلمين الذين تعجلوا النصر والغنيمة ، وعبرة للذين لم يأخذوا حذرهم من المنافقين أو من اليهود . في هذه السنة الثالثة ، وفي شهر رمضان وبالتحديد في منتصفه ولد

الحسن بن الإمام علي وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم جميعا . ليكون السبط الأكبر للرسول ﷺ من إبنته الزهراء .

والإمام الحسن بن الإمام علي رضي الله عنهما . جاء إلى الدنيا نتيجة زواج غاية في التواضع والبساطة بدأ حيث توجه الإمام علي كرم الله وجهه إلى مجلس النبي ﷺ . حتى كان في مواجهته فوقف يترجف رهبة . أهذا هو الأمام علي الذي صال وجال يوم بدر حتى قيل أن هذه المعركة قدمت فارسين الواحد منهم يماثل ألف فارس أحدهما أسد الله ورسوله الحمزة بن المطلب والثاني الإمام علي بن أبي طالب . أهذا هو الإمام علي الذي كان أول من آمن بالنبي ورسالته في قريش من الفتيان وتحمل ما لا طاقة لبشر من أجل نشر هذا الدين وكان صامدا شجاعا لا يبالي أحد من صناديد قريش أو جبابرتها . أهذا هو الإمام علي الذي أخذ على عاتقه أخطر مهمة يستطيعها إنسان في ذلك الوقت وهي أن ينام في المكان الذي تعود أن ينام فيه الرسول ليستطيع النبي الهجرة . صنع هذا مضحيا بنفسه لأنه يعلم جيدا أن في هذه الساعه سوف يقبل عتاة المشركين للقضاء على محمد ﷺ بضربة قوية من فتيان القبائل .

نعم هذا هو الإمام علي كرم الله وجهه وأما لماذا يرتجف أو لا يستطيع الكلام وهو البليغ الشاعر المتكلم ... فبسبب الحياء الذي كان سمة من سمات هذا الدين العظيم .

وفطن النبي إلى اضطرابه وارتجافه وعدم قدرته على الكلام فقال عليه الصلاة والسلام : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فهم أن يتكلم فلم

يستطيع فقال له النبي ﷺ : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟ فهمست شفتا الفارس المغوار بكلمة متقطعة الحروف هي : نعم . فقال النبي ﷺ : هل لك من شيء ؟ رد على رضى الله عنه : لا . فقال النبي ﷺ : فأين درعك الخطمية ؟ رد على : هي عندى قال النبي : فاعطينها . ودخل ﷺ على فاطمة وقال لها : أى بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين ؟ فأطرقت فاطمة رضى الله عنها ثم قالت : « كأنك يأبى . إنما ادخرتنى لفقر قريش . فرد عليها النبي ﷺ : ما تكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء . قالت فاطمة : « رضيت بما رضى الله ا ورسوله » .

وجاءت ليلة الزواج . فبعث بالدرع إلى سوق بدر فبيعت بدرهم معدودة ، وضعت فى حجر الرسول عليه الصلاة والسلام . فقبض منها قبضة وقال : أى بلال ابتع لنا بها طيبا .

وما أن تم العقد ، وجهزت فاطمة رضى الله عنها لتذهب إلى بيت الزوجية . حتى كانت زيارة النبي ﷺ للعروسين قبل الزفاف داعيا ومبتهلا : « اللهم أنى أعوذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .. اللهم بارك فيهما وبارك لهما فى شملهما » .

ورزقا بذرية صالحة كان أكبرها الإمام الحسن رضى الله عنه .

والحق أن كتب السيرة وفى مقدمتها السيرة النبوية لإبن هشام وتاريخ الخلفاء للسيوطى ثم كتابات الدكتور هيكال والأستاذ العقاد

والأستاذ السحار حرصت جميعها على وصف لحظات ميلاد الحسن وشقيقه الحسين رضوان الله عنهما . نظرا لمكانتهما في الإسلام . هذه المكانة المستمدة من إعتزاز جدّهما الرسول ﷺ بهما . ولما يكتنف هذا الميلاد من أحداث غير عادية .

ففى مولد الحسن رضى الله عنه حقيقة تشبه الخيال . حيث نقرأ أنه فى ليلة استيقظت أم الفضل زوجة العباس عم الرسول ﷺ من نومها وهى تحس إنقباضا . فقد رأت رؤيا أزعجتها ، وفكرت فى أن تقص رؤياها على النبى ﷺ . لكنها ترددت . فكيف تقص عليه أنها رأت عضوا من أعضائه يقطع ويلقى به فى بيتها ؟

إن ما رآته - بلا ريب - يزعجها . وعزمت على ألا تبوح به . وأخذت تغدو وتروح ، وما تزال الرؤية المفزعة ماثلة فى ذهنها . تقلقها وتحيرها . حاولت أن تنساها . لكن دون جدوى . فلم تطلق صبرا على كتمانها فأنطلقت إلى رسول الله ﷺ وقالت له فى صوت حزين : « يارسول الله رأيت كأن عضوا من إعضائك فى بيتى » .

وأحسّت أم الفضل ببعض الراحة بعد أن باحت بالسر الذى طال كتمانها عليه . ورنّت إلى النبى لثرى أثر حديثها فى وجهه . فإذا به عليه أفضل الصلاة والسلام يبادر قائلا : « خيرا رأيته . تلد فاطمة غلاما فلترضعينه » .

وتمضى الأيام والليالى بطيئة متشاببة ثقيلة . فهذا الجسد الضعيف

تهده آلام الحمل . وكان يكفي لهذا الجسد ما ينوء به من آلام . ولكن يضاعف من الاحساس بالآلام شظف الحياة نفسها التي كان يعيشها كل من الإمام على وفاطمة الزهراء رضی الله عنهما تحت سقف بيت لا يجد قوت يومه كاملا . إلى أن يكون يوم المخاض . حيث يشق صوت المولود الطاهر هدوء هذا البيت . فإذا هو بالفعل غلاما . كما تنبأ جده الكريم .

وجاء النبي صلوات الله وسلامه عليه . يطلب رؤية حفيده فيخرجوه اليه في خرقة صفراء . فيرمى بها ويقول : « ألم أنحكم أن تلفوا المولود في خرقة صفراء ؟ » ويأمر بأن يلف المولود بأخرى بيضاء . ويقطع سترته وهو يقول : « اللهم إني أعيزه بك وولده من الشيطان الرجيم » .

وفي اليوم السابع جاء النبي ﷺ وقال : « أروني إبنی ، وما سميتموه ؟ » فقال والده الإمام على كرم الله وجهه : « حربا » فقال رسول الله ﷺ : « بل هو حسن » ونحر كبشا ، وأعطى القابلة فخذا ودينارا . وقال عليه الصلاة والسلام لابنته : « يافاطمة احلقى رأسه ، وتصدقى بزنة شعره فضة » .

وهكذا غدا المولود قرّة عين أمه وأبيه رضوان الله عليهما حتى ان أمه كانت حين تهدهده تقول في فرحة بالغة شعرا منه :

اشبه أباك يا حسن وأخلع عن الحق الرسن
وأعبد الها ذا منن ولا توالى ذا الاحن

وما انقضى إلا شهر وبعض شهر من ميلاده الأول حتى ولد الحسين

رضى الله عنه ليسميه بهذا الاسم جده النبي الكريم . وليكون الاسمين اسلاميين لم يسبق أن تسمى بهما أحد في الجاهلية .

ومع الأيام ينمو الطفل ... وترضعه أم الفضل زوجة العباس رضى الله عنهما كما طلب منها النبي ﷺ قبل أن يولد ... ثم يحبو ويخطو ويمشي ويعرف الطريق إلى مجلس جده النبي الكريم في البيت أو في المسجد . فإذا وقف جده النبي ﷺ يصلي جاء الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره . فيرفعه النبي . حتى إذا فرغ من صلاته وضعه في حجره . فكان الصغير يدخل اصابعه في لحية الجد الكريم . والنبي يضمه في حنان ويقبله ويقول : « اللهم إني أحبه فأحبه » حتى إذا رأى بعض المسلمين ذلك الحب قالوا : يا رسول الله ما رأيك تصنع بهذا الصبي شيئا ما رأيك تصنعه بأحد .

وروى البخارى عن أبى بكر قال : « سمعت النبي عليه الصلاة والسلام على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة يقول : « إن إبنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » كما روى البخارى أيضا عن عمر رضى الله عنه : « قال رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين « هما ريحنتاى من الدنيا » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : « قال رسول الله ﷺ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » كما روى الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه : « سئل النبي ﷺ أى أهل بيتك أحب إليك ؟ قال الحسن والحسين » . وعن ابن عباس قال : « أقبل النبي عليه الصلاة

والسلام وقد حمل الحسن على رقبته ، فلقيه رجل فقال نِعَم المركب ركبت يا غلام ! فقال النبي ﷺ ونعم الراكب هو .

وكذلك يروى أن النبي ﷺ كان يخطب في المسلمين فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران . يمشيان ويتعثران فنزل عليه الصلاة والسلام من المنبر . وحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله العظيم : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويتعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » هكذا بلغ حب النبي ﷺ لحفيديه .

ولقد تولى الحسن الخلافة بعد مقتل أبيه الإمام على عليهما رضوان الله : فأقام بها ستة أشهر ثم تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان حقنا لدماء كثيرة وتحققت نبوءة جده في أنه يصلح الله به بين فئتين من المسلمين . كما تحققت نبوءة جده النبي الكريم . حيث أن الحسن رضى الله عنه قد مات مسموما □

يوم أحد

وتتفق الكتب قديمها وحديثها المهمة بالسيره على أنه كان تشابك
الجمعين في موقعة أحد لم يتم في رمضان . غير أن مقدمات هذا التشابك
والاستعداد له تم بالفعل في رمضان من السنة الثالثة للهجرة . وأن هذا هو
المهم . لأنه حشد القوى للمعركة وظهور مقدماتها وملاحقها هو المعول
عليه عند خبراء الحرب وكتائبها . وهو ما حدث بالنسبة ليوم أحد فلم
تمض ستة أيام الأولى من شوال بعد رمضان مباشرة إلا وكانت الحرب بين
المسلمين والمشركين تضع أوزارها في أحد بكل ما سبقها من تعبئة جهود ،
حشد قوى ، وسرعة حركة ، ونقل عدة وعتاد إلى مسرح الحرب نفسها .

كان هذا يحدث من الطرفين إلا أنه كان عند المشركين يحدث بشكل مكثف وبصورة واضحة ومزعجة . فما زالت محنة بدر تُوَرِّق رؤوس الكفر ، ومازالت هزيمة صنديد وسادات قريش تورثهم الحزى والعار . ولن يزول كل هذا إلا بالدماء . حتى تعود لقريش هيبتها بين القبائل وسيادتها بين العشائر ولاقتصادها المنهار الاستقرار والازدهار .

وحتى يكون دماء المسلمين ونبههم الكريم مراقا على طول الجزيرة العربية وعرضها . حرصت قريش ألا تواجه المسلمين بمفردها بل تحشد لهم كل القوى المناهضة للإسلام أو حتى صاحبة المصالح في ذلك . ولذلك تحرك المناهضة للإسلام ونبهه الكريم هم اليهود تبعهم هؤلاء المنافقين على مستوى القبائل العربية حول مكة والمدينة إلى جانب قريش .

ولقد وجه الدكتور عبد العزيز كامل هذه المادة التاريخية الموجودة في كتب السيرة القديمة توجيها علميا في كتابه « دروس من غزوة أحد » يجعل المرء يندهش لهذه الاستعدادات في الحرب أو في السياسة لدى الطرفين المؤمنين والمشركين وإن كان الهدف لذيهما يختلف ولاشك .

لقد رأت القوى الثلاثة القرشيون في مكة واليهود في المدينة ، والمنافقون المنتشرون حول مكة والمدينة في كل قبائل العرب أن انتصار الإسلام في بدر هدد مصالحها ووجودها . ولم تكن هذه الحقيقة بخافية على الرسول ﷺ . ولكنه - عليه الصلاة والسلام لم يرد أن يكون البادئ بالعدوان . وتلك لعمري درس في الإستراتيجية يعرفه جيدا أهل الحرب والسياسة . أن نتظر لنرى ما يفعلون . في يقظة تامة . تسير الأحداث

بشكل يؤكد أن النبي ﷺ لم يكن في المدينة منقطعا عما يحكيه له اليهود فيها ، ، ولا ما تتأمر به القبائل العربية ، ولا عن الإتصالات المريبة بين قريش واليهود . بل كان عليه الصلاة والسلام واعيا ذلك كله . عالما بأن النصر الذى حققه يوم بدر لابد وأن يكون له ثمنه ، والأكثر أن وراء هذا النصر لابد أن تشتد المعارك شراسة وضراوة . كان أعداء الإسلام من مشركين ويهود ومنافقين على النحو التالى . وأن يكون تحرك هذه القوى الثلاث متداخلا ، وأن تصطدم إحداها بالمسلمين . ثم إذا ما التفتوا إلى قوة أخرى ليلقونها عادت الأولى إلى الحركة أو تحركت الثالثة ... حتى لا يتوقف الصراع بين قاعدة الإسلام وأعدائها وإن يظل مستمرا حتى يكون اللقاء العنيف يوم أحد .

يعقب هذا الحشد السياسى على إمتداد عام حشد آخر عسكرى فها هى قريش تستعد لأضخم حملة عسكرية تستطيع أن تشنها على قاعدة الإسلام فى المدينة . ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبعمائة راكب ودارع ، بينهم مائة من ثقيف (الطائف) ، ذخائر حربية كثيرة ، مائتا فارس وهى أخطر قوة ضاربة وقتلة ، ثلاثة آلاف بغير . حتى النساء يسهمن فى هذه المعركة ضد المسلمين حيث تخرج نساء قريش وهن يحملن الدفوف ليشهدن القتال ويذكرن رجالهم من القرشيين بأخذ الثأر .

وبالطبع تصل أنباء هذه التحركات سياسية كانت أو عسكرية إلى الرسول ﷺ والمؤمنين . فيجمع أصحابه للمشورة ، وتكون الآراء موزعة بين الخروج لمواجهة العدو ، أو البقاء فى المدينة والتحصن بها . ومقاومة المهاجمين لها .

حتى يستقر الرأي بعد أن يجمعهم الرسول ﷺ ويقول لهم :
« أيها الناس إني رأيت في منامي رؤيا . رأيت كأني في درع حصينة ،
ورأيت كأن سيفي ذا القفار انفصم عند ظبته (أى طرفه) ، ورأيت بقرا
تذبح ، ورأيت كأني مردفا كبشا » .

فقال الناس : فماذا أولتها يا رسول الله .

قال رسول الله ﷺ : « أما الدرع الحصينة فالمدينة فأمكثوا فيها ،
وأما إنفصام سيفي فقتل رجل من أهل بيتي ، وأما البقر المذبح فقتل من
أصحابي ، وأما إني مردف كبشا فقتل قائد من الأعداء إن شاء الله » .

ويوضح الرسول ﷺ خطته قائلا : « امكثوا في المدينة وأجعلوا
النساء والذراري في الآطام (أى بيوت الحجارة) فإن دخل علينا العدو
قاتلناه في الأزقة فنحن اعلم بها منهم . ورموا من فوق الصياصي (أى
الحصون) » .

ويتفق الصحابة من مهاجرين وأنصار على هذا الرأي . وها هو
الحمزة رضى الله عنه يقول وقد كان صائما : « والذي نزل عليك الكتاب
لا أطعم اليوم حتى أجالدهم بسيفي خارجا من المدينة » .

لكن ماذا عن قوات الطرفين ؟ النظرة السريعة إلى الجمعيتين تقول أن
المجاهدين المسلمين الفا ، بينما المشركين كانوا ثلاثة آلاف . وباليات عدد
المجاهدين المسلمين يظل على حاله . لقد تخاذل منه ثلثائة مجاهد حين عاد
بهم حليف الشر أو اليهود « عبد الله بن سلول » . ولذلك تتقدم القوات

الإسلامية إلى ساحة المواجهة بثلى كفاءتها . بينما قوات المشركين على حالها لم ينقص منهم مقاتل .

وتتوزع قوة المسلمين إلى ٦٥٠ مجاهدا يقابلون عدوا تعداده ثلاثة آلاف مقاتلا . والخمسين الباقين من قوة المسلمين فهم رماه أمرهم الرسول ﷺ أمرا قتاليا صريحا وواضحا . مؤداه أن يقفوا في مكان معين . وقال عليه الصلاة والسلام لقائدهم عبد الله بن جبير : « إنضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتون من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فأثبت » .

أمر قتلى واضح في جملة وتفصيله . خلاصته الزم مكانك ولا تبرحه سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . إذن فعلى هؤلاء الخمسين من الرماة مسئولية كبرى هي صد هجوم مائتين من فرسان المشركين ، وخلفهم ٢٨٠٠ من المشاه وأن هؤلاء الفرسان كانوا تحت قيادة خالد بن الوليد (فلم يكن قد اسلم بعد) وعكرمة بن أبى جهل . وهذا وذاك يعدان من عباقة الحرب وأكبر فرسان العرب وقتئذ .

ودارت رحى الحرب ، رصد رماة المسلمين الخمسين . هجمات فرسان المشركين بقيادة ابن الوليد وابن أبى جهل . ونجحت في ذلك جولتين متتاليتين . بينما ظل مشاة المسلمين في مكان مأمون ، وجوههم نحو العدو ، وظهورهم محمية بهؤلاء الرماة . مما جعل الاضطراب يدب في صفوف المشركين . بينما تندفع أعداد المؤمنين وسط قوات قريش التي أذهلها القتال العنيد للمسلمين . وكأن ما حدث بالأمس يوم بدر يحدث اليوم في أحد .

لكن تحدث المفاجأة ... - والحرب - كما نعرف مفاجآت - المفاجأة الإلحمة . بعد أن تمتلئ أيدي المؤمنين بالمغانم والاسلاب . فتنهبط منها السيوف . فمستحيل ليد واحدة تمسك السيف للجهاد وهى فى الوقت نفسه تتطلع إلى ما تظفر من مغام وأمتعة . وهنا تحدث النكسة لا محالة . بل تحدث الهزيمة حيث تتطلع عيون الرماة الذين قد أمرهم رسول الله ﷺ بألا يغادروا موقعهم مهما حدث . ها هم يتطلعون إلى ما يحمله إخوانهم من المؤمنين من مغام واسلاب ومتاع للدنيا . فيفر اغلب الخمسين إلى حيث يحققون متاع الدنيا . ولايقى حول عبد الله بن جبير إلا نفر قليل يؤثر الموت على الحياة . وفى هذه اللحظة يوجه العدو ضرباته القاضية فى صورة موجات من الهجوم بقيادة ابن الوليد . على أثرها تنخضب أرض المعركة بدماء المسلمين . ويصبح مركز القيادة المتمثل فى النبى الكريم ونفر قليل من صحابته مهمته الدفاع عن هذا المركز . مهددا . ويختل توازن القوة الإسلامية إلى درجة أن أفرادها صار يضرب بعضهم البعض . ولا يثبت حول الرسول من الرجال إلا أربعة عشر صحابى جليل يتولون حمايته بصدورهم . ولا يفكرون والإمر كذلك فى تصعيد الهجوم ضد العدو .

* * *

حول هذه القلة القليلة يبدأ التجمع بعد شتات . لكن هذه القلة كانت مستهدفة حيث تتابع زحفها إلى جبل أحد . ويزداد الهجوم عنفا وكثافة حيث كان مطلب المشركين هو قتل الرسول ﷺ . وها هو ابن

قميقة يحاول ذلك . فتتصدى له « أم عمارة نسيبه الحرزجية . لتلقى الطعنة عن رسول الله وترد على هذا المشرك بطعنة كبيرة ويحتاط الرسول . فيغير مظهره حيث يخلع لامته (أى خوزته) . ويأمر أصحابه بعدم التعليق عندما سرت أشاعة قتله فى المعركة . حتى تخف الهجمات ولا تشتد فالهجمات تستهدفه هو عليه أفضل الصلاة والسلام هذا من ناحية ، وإختراق نطاق الكفار المضروب حولهم إلى مكان آمن من ناحية أخرى . ويتم ذلك . إلا أنه يستشهد من المسلمين مع قتلهم العشرات بينما يقتل من المشركين على كثرتهم ما لا يزيد عن العشرين قتيلا . بل ويستشهد من المؤمنين من يقدر بألف فارس وهو الحمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله وتمثل بجثته أبشع تمثيل . ويتعلم المسلمون درسا جديدا يفيدهم فيما بعد □

اعتكافه

وعلى إمتداد العشرة أيام الأنحية من رمضان فى كل عام كان النبى ﷺ يعتكف بمسجده الشريف فى المدينة . فلما كان العام الذى لحق فيه بالرفيق الأعلى . اعتكف عشرين يوما بدلا من عشرة أيام ، مستكثرا من الخير عن طريق الخلوة بره . وكأنه يشير بذلك إلى أن على المسلم - كلما دنا به العمر إلى لقاء ربه - أن يشرع همته للاستكثار من الخير حتى تمتد له بذلك الطريق الراضية إلى لقاء الله .

وانطلاقا من هذا الهدى النبوى الشريف ، فإن الاعتكاف فى رمضان أمر مشروع كما أجمع العلماء .

ويذكر الأمام ابن قيم الجوزية فى كتابه « زاد المعاد » أن الرسول

ﷺ كان إذا اعتكف دخل قبله وحده ، وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان .

ومن قبل قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر (أى العشرة الأخيرة من رمضان) شد مئزره ، وأحيا ليله وأيقظ أهله » وتقول رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه أراد مرة أن يعتكف في العشر الأخيرة من رمضان فأمر ببنائه (أى إتخاذ مكان في المسجد) فضُرب ، فلما رأيت ذلك أمرت ببنائى فضرب ، وأمر غيرى من أزواج النبى ﷺ ببنائه فضرب . فلما صلى - النبى ﷺ - الفجر نظر إلى الابنية وقال ما هذا ؟ البرُ تردن ؟ (أى هل الطاعة تردن) فأمر ببنائه فقوض (أى أزيل) وأمر أزواجه بأبنيتن فقوضت . ثم أخرج الاعتكاف إلى العشر الأول (أى العشرة أيام الأولى من شوال) . وترك الإعتكاف بعد نيته منهن دليل على قطع ، بعد الشرع فيه » وفى هذا الحديث إشارة إلى أن للزوج الحق فى أن يمنع زوجته من الاعتكاف إقتداء بهدى رسول الله ﷺ مع زوجاته .

كذلك توضح السيدة عائشة - رضى الله عنها سلوك المعتكف فتقول : « أن النبى ﷺ كان يمر بالمرضى وهو معتكف ، فيمر كما هو ولا يعرج يسأل عنه » وما روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها من أن السنة على المعتكف أن لا يعود مريضا . فمعناه أن لا يخرج من معتكفه قاصدا باده ، وأنه لا يضيق عليه أن يمر به فيسأل غير معرج عليه . حيث

قالت رضى الله عنها بنصر حديثها : « السنة على المعتكف إلا يعود مريضا ، ولا يشهد جنازة ، ولا يمس المرأة ولا يباشرها ، ولا يخرج لحاجة إلا لما بدا منه ، ولا اعتكاف إلا بصوم ، ولا إعتكاف إلا فى مسجد » .

والمعتكف يستعد للاعتكاف بالفراش والغطاء وبما يلزمه كما يقول ابن عمر رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ ، كان إذا اعتكف طرح له فراشه أو يوضع له سريره » .

ويباح للمعتكف أمورا نلمسها من هديه عليه الصلاة والسلام . فقد قالت السيدة صفية بنت حبي زوجة رسول الله : « كان رسول الله ﷺ معتكفا ، فأتيته أزوره ليلا ، محدثة ثم قمت فقام معى - وكان مسكنها فى دار اسامة بن زيد - فمر رجلان من الأنصار . فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا . فقال النبى ﷺ على رسلكما . أنها صفية بنت حبي ، قال الرجلان : سبحان الله يارسول الله . قال رسول الله : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، فخشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا » .

كذلك يباح فى الاعتكاف . ترحيل الشعر وتمشيطه ، وحلق الرأس وتقليم الأظافر وارتداء أحسن الملابس والتطيب بالطيب كما قالت السيدة عائشة : كان رسول الله ﷺ يكون معتكفا فى المسجد فيناولنى رأسه من خلل الحجرة ، فأرحله (أى أمشطه) » .

ومن هديه عليه الصلاة والسلام فى اعتكافه خلال شهر رمضان . التوجيه بأن الاعتكاف ليس أمساك عن الكلام ظنا من المسلم أن ذلك مما

يقرب إلى الله عز وجل . فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : بينما النبي ﷺ يخطب ، إذا هو برجل قائم فسأل عنه . فقالوا : أبو اسرائيل يارسول الله . نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال رسول الله ﷺ مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه .

ولا شك أن الاعتكاف معوان للمسلم على تحصيل كمال صومه حين تمهد له السبيل إلى القيام بشعيرة الاعتكاف على الوجه الذى قصده الشارع الحكيم والتزمه من بعد السلف الصالح من أزواجه وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

ولا يتحقق القيام بهذه الشعيرة الاعتكاف بغير تحقق شروطه وهى أن يكون مسلماً مميزاً طاهراً . فلا يصح لكافر أو لصبى أو لحائض أو نفساء أن يعتكف .

كذلك ينبغى أن تتم أركان الاعتكاف حتى يتحقق كشعيرة . وذلك بالمكث فى المسجد بنية التقرب إلى الله عز وجل . فلو لم يقع المكث فى المسجد أو لم تحدث نية الطاعة لا ينعقد الاعتكاف .

ومن الخطأ أن يظن أن الاعتكاف لم يكن معروفاً قبل الإسلام . أو أنه شعيرة اسلامية محضة . لأن الاعتكاف كان معروفاً قبل الإسلام عند كثير من الشعوب القديمة ، والعرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون الاعتكاف ، وكان منهم من يعتكف أو يعتزل . حتى إن بعض أهل السير يطلقون كلمة الاعتكاف على اعتزال رسول الله ﷺ عن الناس وبقائه بغار حراء فى شهر رمضان من كل عام قبل أن يشرفه الله تعالى باصطفائه نبياً للعالمين .

ولقد جرى حديث بين النبي ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يشير إلى ذلك حيث يقول عمر بن الخطاب : « يارسول الله كنت قد نذرت في الجاهلية أن أعتكف في المسجد ليلة حول الكعبة . فقال له النبي ﷺ : « أوفى بنذرك يا عمر » .

وهذا النوع من الاعتكاف يدخل في باب الاعتكاف الواجب أى الذى يوجبه المرء على نفسه كأن يقول لله على أن أعتكف أو الإعتكاف المعلق كقول المرء : إن شفا الله مريضى لأعتكفن كذا ... وهذا بالطبع غير الاعتكاف المسنون . الذى سنه النبي ﷺ في العشر الاخيرة من رمضان كما تقدم .

* * *

ولقد أتى على الإنسانية حين من الدهر كان الناس فيه يؤثرون العزلة وتجنب المجتمعات إنقطاعا إلى ربهم ، وإيثارا لسلامة دنياهم . ولقد تأثر بذلك بعض الصحابة رضوان الله عليهم فحاولوا أن يسلكوا الطريق اليه ، كما يدل على ذلك كثير من الروايات والأحاديث النبوية . فهذا هو أبو إمامة رضوان الله عليه قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من السرايا فمر رجل منا بغار حوله بقل وماء . فحدثته نفسه أن يقيم معتكفا في هذا الغار . يقتات مما حوله من نبات ويصيب ما يحتاج اليه من ماء وبذلك يتخلى عن الدنيا ويخلص من آفاتنا فمضى إلى رسول الله ﷺ يقول له : يانبي الله . لقد مررت بغار فيه ما يمسك على حياتي ، من بقل وماء . فحدثتني نفسى أن أقيم فيه وأتخلى عن الدنيا فقال النبي ﷺ : لقد بعثنى ربي بالحنيفية السمحة لا أصر فيها ولا حرج . والذى نفسى بيده

لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها . ولقيام أحدكم في الصنف مجاهدا في سبيل الله خير من صلاته ستين سنة » وهنا إشارة من النبي ﷺ إلى يسر ديننا السمح .

والقرآن في هذا الشأن أصل لكل مَنْ يلوذ اليه ليقف عند حدوده ففي قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة إبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ ما يؤكد على أن هذا الدين يسرا لا يكلفنا أكثر مما نطيق .

بل إن رسول الله ﷺ وضع يسر هذا الدين حيث روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان معتكفا في مسجد رسول الله ﷺ . فأتاه فسلم عليه ثم جلس . فقال له ابن عباس : يا فلان أراك مكثبا حزينا ، قال الرجل : نعم يا ابن عم رسول الله . لفلان على حق ولاء . وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه ، قال ابن عباس : أفلا أكلمه فيك ؟ فقال إن أحببت . فأنتعل ابن عباس ، ثم خرج من المسجد قال الرجل : أنسيت ما كنت فيه ؟ (أى اعتكافه) قال ابن عباس : لا ولكنى سمعت صاحب هذا القبر - ﷺ - والعهد به قريب يقول : من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق ... » .

ومن هنا يتضح أن الاعتكاف سنة لمن استطاع عليه تقريبا لله عز وجل وإقتداء برسوله ﷺ ، وهو مستحب في رمضان ففيه صيام النهار وقيام الليل □

مواجهة اليهود في الخندق

ثم يأتي رمضان العام الخامس للهجرة وهو في التاريخ الإسلامي عام
الزلزلة لقوله تعالى : ﴿ هـنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ إشارة
إلى ما أصاب المسلمين من بلاء في معاركهم مع المشركين ويهود المدينة
والمنافقين على إمتداد القبائل العربية . فمع رمضان من هذا العام الخامس
أيضا كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق . لمواجهة اليهود في شبه
الجزيرة العربية ، وليس مع يهود المدينة وحدها . فقد ضاق النبي ﷺ
والمؤمنين من دسهم ومكرهم . وكانت مواجهتهم في غزوة الخندق التي إن
كانت قد وقعت في ١١ شوال إلا أن الاستعدادات لها كانت خلال رمضان .

والحق أن الاستعداد لهذه الغزوة كانت أهم من المعركة نفسها .
فإقامة هذا الخندق كان ولا شك من أساليب الحرب التي لم تتعودها
الجزيرة العربية في ذلك الوقت ويكفى أن نعرف أن صاحب فكرته هو
سلمان الفارسي وهذه الفكرة الصائبة في الحرب رفع رسول الله ﷺ قدر
سلمان الفارسي ، ومنحه أرفع وسام يمكن أن يحصل عليه إنسان في عصر
النبوة حيث قال ﷺ تقديرا لسلمان : « سلمان منا آل البيت » وقال
وهو يعنى سلمان الفارسي : « لو كان العلم في السماء لئاله رجل من
فارس » وهكذا فإن أقدار الرجال مرهونة دائما بأعمالهم وإخلاص نياتهم .
وقد كان هذا الفارس مستحقا لإخلاصه .

لقد كان من حديث الخندق أن نقرأ في السيرة لإبن هشام . أن
اليهود حذبوا الأنحزاب ضد رسول الله ﷺ ورجاله . فخرجوا حتى قدموا
على قريش بمكة فقالوا لهم « إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله »
وأستغلت قريش ذلك لتسأل اليهود حتى تعرف نواياهم قائلين : « يا معشر
يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول (إشارة إلى التوراة) والعلم بما أصبحنا
نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟ » .

قال اليهود - وهم يرون رأى العين الأصنام التي كانت حول
الكعبة ، ويعلمون أن جوف أول بيت وضع للناس قد كدست فيه تماثيل
آلهة كل شعوب الأرض حتى صار مخزنا للشرك بعد أن كان منارة للتوحيد
- : « بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه » .

ياللسخرية ! أصحاب الكتاب الأول وحملة رسالة التوحيد يزعمون

اليوم أن الوثنية خير من دعوة تدعو إلى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له ! إنها ضلالة من اليهود يستحقون من أجلها تلك اللعنة التى لعنهم بها الله من فوق سبع سموات حين قال تعالى : ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ .

وبالطبع تسر قريش لما تسمع ، وتنشط لما تدعوهم اليه اليهود من حرب النبي ﷺ .

وقالوا ذلك أيضا لقبائل غطفان وفزارة وبنى مر وغيرها ، واجتمعوا على أمر واحد هو حرب النبي ﷺ واستئصال دعوته من شبه الجزيرة العربية .

وهكذا أقبلت قريش فى عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبو سفيان بن حرب وتبعتها بقية القبائل ، وخرج النبي ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين وتمركزوا وراء الخندق على طول المدينة . فكان هذا الخندق فاصلا بينهم وبين الاعداء من المشركين واليهود . إلا أن العدو كان من الكثرة والتركيز . حتى استبد الخوف ببعض الضعفاء من المسلمين حتى قال أحدهم : « كأن محمدا يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » .

ويشتد البلاء على الناس . فهم ستة محاصرين وراء الخندق وأمامهم

المشركين يشددون بكثرتهم الحصار . حتى تفشل خطة الخندق . فتكون عوناً لهم وليس ضدهم وهنا يبعث النبي ﷺ إلى قائد غطفان عارضاً عليه أن يعطيه ثلث ثمار المدينة على أن يمر بمن عنه وعن أصحابه فجرى بينه عليه الصلاة والسلام صلحا .

وظل الحال على ما هو عليه . حتى يتسلل بعض المشركين من ثغرة في الخندق ليلتقوا بالمسلمين وجها لوجه . وكان على رأس المسلمين على بن أبي طالب . الذي قضى ورجاله على هؤلاء المتسللين . حتى يحدث ما لم يكن في الحسبان حيث يأتي نعيم بن مسعود بن عامر أحد المتحزبين على النبي الذي راح يفكر في ذلك الدين الذي يجعل أهله مستبشرين حتى بقاء الموت . ذلك الدين الذي يجعل الفتيان والشيوخ يحفرون خندقاً كهذا والظمأ يبلغ منهم مبلغاً ، والعرق يتفصد منهم في قيظ رمضان ... وانتهى تفكيره إلى أمر . هو أن يأتي إلى رسول الله ﷺ ويقول له : « يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت » قال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وقال لهم : « يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم » قالوا له : « صدقت لست عندنا بمتهم » قال نعيم : « إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ولا تعذرون على أن تحولوا منه إلى غيره . وإن قريشا وغطفان جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدكم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا

نهنه (أى فرصة) أصابوها . وإن كان غير ذلك لحقوا ببلاذهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونوا بأيديكم ثقة لكم . على أن تقاتلوا محمدا حتى تناجزوه » فقالوا : لقد أشرت .

وخرج إلى قريش وقال لهم تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد ارسلوا اليه . إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على مَنْ بقى منهم حتى نستأصلهم ، فإن بعث اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج نعيم إلى غطفان وقال : « يامعشر غطفان إنكم أصلى وعشيتى ، وأحب الناس إلى ، ولا إراكم تهملونى » قالوا : صدقت ، فقال لهم مثال ما قاله لبنى قريظة وقريش .

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان رسلا من غطفان وقريش إلى بنى قريظة لحنهم على القتال . فقال اليهود إن اليوم يوم سبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا . حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نحارب محمدا .

فلما رجعت الرسل بما قالت بنى قريظة قالت قريش وغطفان : تأكدوا مما قاله نعيم ، وأرسلوا إلى بنى قريظة برفض مطلبهم . وهنا أيضا

تأكدت بنى قريظة من صدق ما قاله نعيم . وهكذا أنطلقت وخالت
الخدعة على الثلاثة أطراف بنى قريظة وقريش وغطفان . فدنت الفرقة بينهم
كمتحالفين ووقع الخزلان .

ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف عليه أمرهم ؛ وما فرق الله
من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه مستطلعا ما يفعله المشركون ليلا .
وعاد ليقول لرسول الله ﷺ : « دخلت في القوم والريح وجنود الله
تفعل بهم ما تفعل ، حتى قام أبو سفيان فقال يامعشر قريش أنكم والله
ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنى قريظة .
وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون . فأرتحلوا فإني
مرتحل » .

ولما أصبح رسول الله ﷺ ... انصرف عن الخندق ، راجعا إلى
المدينة بعد أن تأكد من انسحاب المشركين منهزمين أمام هذا الخندق .

* * *

ومع الظهر أتى جبريل عليه السلام النبى الكريم وقال له : أو قد
وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال النبى ﷺ : نعم . فقال جبريل عليه
السلام : « فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، ومارجعت الآن إلا من
طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإني عامد
اليهم فمززلهم بهم » لقد نقض بنو قريظة العهد والأكثر أرادوا قتل رسول الله
ﷺ .

* * *

وهنا أمر رسول الله ﷺ بلال فأذن في الناس . قائلا : « مَنْ كَانَ سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة » .
وتقدم إلى بني قريظة على بن أبي طالب رضى الله عنه حاملا الراية . حتى إذا دنا من حصونهم سمع ما جعله يخشى على تقدم الرسول فهم قوم ماكرين خبيثاء . فرجع إلى رسول الله ﷺ . حتى إقترب منه وقال : « يارسول الله . لا عليك . ألا تدنو من الأخابث » قال هذا لكي يمنع النبي من التقدم . إلا أن النبي ﷺ تقدم حتى دنا من حصونهم وقال : « ياأخوان القردة . هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته » فقال كبيرهم موجها كلامه إلى النبي : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً » .

ومر النبي ﷺ على نفر من أصحابه . أخبروه عن إتجاه رجل ركب بغلة بيضاء ، عليها رحاله ، وعليها قطيفة ديباج . إلى بني قريظة . فقال النبي ﷺ « ذلك جبريل ، بعث إلى بني قريظة يزلزل حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم » .

وأقتحم النبي ورجاله حصون بني قريظة . بعد اشتباكات خاطفة ، وتلاحق به المسلمون وظلوا محاصرين لهذه الحصون خمسا وعشرين ليلة . حتى أجهد بني قريظة الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب . وهنا إقترح عليهم أحد زعمائهم ثلاثة إقتراحات ليختاروا واحدا منها حتى يفك المسلمون الحصار .

كان الإقتراح الأول : أن يؤمنوا به . فقالوا لا نفارق حكم التوراة . والثاني : أن نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين

السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فإن هلكنا نهلك ولم نترك وراءنا نسلا
نخشى عليه . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بدونهم والاقتراح
الثالث : إن ايتم هذه وتلك . فإن الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون
محمدا وأصحابه غافلين . قالوا : نفسد سبتنا علينا ، وتحدث فيه ما لم
يحدث من كان قبلنا » .

وهنا رد كبيرهم : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من
الدهر حازما .

وهكذا انتهى أمر بنى قريظة ووزعت أموالهم ونساءهم وأبناءهم على
المسلمين □

سفراؤه إلى الأباطرة والملوك

وجاء رمضان العام السادس للهجرة ... وهو في التاريخ الإسلامي يعرف بعام الاستئناس اشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ... لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ . وكان النبي ﷺ مقيما بالمدينة . يعد العدة للخروج في ذى القعدة معتمرا . ينجح للمسلم ، ولا يريد الحرب . ومع هذا الشهر المعظم من هذه السنة ... بدأ النبي ﷺ التفكير في ارسال رسله أو مبعوثيه أو بلغة الدبلوماسية الحديثة سفرائه إلى أباطرة وملوك أمم وشعوب العالم القديم ... يدعوهم إلى إتباع

الدين الإسلامى تؤكد لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا
ونذيرا ﴾ فما كانت رسالة النبى ﷺ إلا رحمة للعالمين ، وما كانت أيضا
إلا للناس كافة ولهذا وجبت النظرة إلى هذا العالم القديم والقوى السياسية
التي كانت تحكمه فى عصر النبوة .

ولا تخلو كتب السيرة القديمة والحديثة عن الإشارة إلى هذه
الجوانب ، مسجلة مكاتبات النبى ﷺ إلى ملوك وأباطرة وقادة وزعماء
العالم القديم ، وأسماء من قام بتوصيل هذه المكاتبات ممن إختارهم النبى
ﷺ لهذه المهمة الجديدة على شبه الجزيرة العربية . فقد كان كل ما يعرفه
العرب وقتئذ هو اسلوب العهود والعقود فيما بين القبائل . أما المكاتبات
إلى قادة أُمم وشعوب العالم القديم ، أو الخطابات التشريعية إلى الأمم
والشعوب نفسها فهي اساليب استحدثت بعد الإسلام وفى عصر النبوة
على وجه التحديد .

وفى هذا العالم القديم نلاحظ قوتين عظيمتين . شأنه كالعالم
المعاصر . وإن إختلفت الاسماء والمسميات والسياسيات كانت الروم هى
إحدى هاتين القوتين وكانت الفرس هى القوة الثانية وأما بقية أُمم وشعوب
العالم القديم فقد كانت تدور فى فلك هاتين القوتين العظيمتين قريبا أو بعدا
من نفوذهما . وكان هرقل وكسرى على رأس هاتين القوتين العظيمتين .
وكانت الحرب سجالا بينهما ، وكانت الفرس صاحبة الغلب فى بادئ
الأمر حيث استولت على فلسطين ومصر . ووضعت يدها على بيت
المقدس ونقلت منه الصليب . إلا أن ذلك لم يدم طويلا . فقد عادت

اعلام الرومان تحقّق مرة أخرى على مصر وسورية وفلسطين . واسترد هرقل الصليب بعد أن نذر لذلك نذرا ... أن يخرج إلى بيت المقدس ماشيا . حتى يرد الصليب إلى مكانه .

ومن اليسير والأمر كذلك في العالم القديم أن نقدر مكانة هاتين القوتين العظيمين وما يبعثه اسمهما -- كما يقول الدكتور هيكل -- « من الرهبة إلى النفوس ، ومن الهيبة إلى القلوب . حتى لا تفكر دولة في التعرض لهما . ولا يدور بخلد أحد أن يفكر في غير خطبة ودعما » .

فإذا كان ذلك هو شأن أم وشعوب العالم القديم . فلا بد أن يكون أيضا هو شأن بلاد العرب . وعلى هذا كانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس ، وكانت مصر والشام تحت نفوذ الرومان . وكانت شبه الجزيرة العربية محصورة في دائرة نفوذ هاتين القوتين العظيمتين . وكانت إقتصاديات شبه الجزيرة العربية إن لم تكن حياة سكانها معتمدة -- كما رأينا -- على التجارة مع الشام التابعة هي ومصر للروم . أو مع اليمن التابعة هي والعراق للفرس . ولذلك كان على جبابرة قريش وغيرها من القبائل العربية مصانعة هاتين القوتين العظيمتين . حتى لا تفسدان بقوة نفوذهما وسلطانهما تجارة هذه القبائل في الشام أو اليمن ... ولذلك كانت هناك استحالة في إختيار بديلا للمصانعة على أى أمة تدور في فلك هاتين القوتين العظيمين . وبالتالي كان من الصعب أن يفكر النبي ﷺ حتى ولو دانت له قبائل شبه الجزيرة العربية من أقصاها إلى أدناها ... مجرد التفكير في الخروج على هذه القاعدة الموروثة وهي مصانعة هاتين القوتين العظيمين . فما بالنا وقد

تجاوز - عليه أفضل الصلاة والسلام - ذلك إلى إرسال مبعوثيه أو سفرائه إليهما ، وإلى غيرهما من الأمم التي كان لها شأن في العالم القديم كالحبشة . يدعوهم جميعا إلى دين الله ، وترك ما يدينون من ديانات سماوية أو غير سماوية ! إن ذلك يترتب عليه الكثير من النتائج لعل المباشر منها هو ضرب إقتصاديات العالم العربى المثلة في تجارتهم ، إن لم يكن جر العرب إلى المواجهة المباشرة لإحدى هاتين القوتين العظميين أو الأثنتين معا . مواجهة نتائجها معروفة مقدما وهى الخضوع الكامل لهاتين القوتين وليس مجرد الوجود في دائرة نفوذهما .

هذه الحقائق - عن العالم القديم - كان النبي ﷺ يدركها تمام الإدراك . فقد كانت ماثلة أمامه ... ولكنه عليه الصلاة والسلام رغم هذه المخاطر التي ربما تنجم عن تنفيذ هذه الفكرة لم يتردد . بل خرج على أصحابه رضوان الله عليهم وقال : « أيها الناس إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافة ، فلا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » قال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ » قال عليه الصلاة والسلام : « دعاهم إلى الذي دعوتكم اليه . فأما من بعثه مبعثا قريب فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وثقل » ثم ذكر عليه الصلاة والسلام « أنه مرسل رسل إلى هرقل بيزنطة ، وكسرى فارس ، والمقوقس في مصر ، والحارث الغساني ملك الحيرة ، والحارث الحميري ملك اليمن ، وإلى نجاشي الحبشة ... يدعوهم إلى الإسلام » ووافقهم أصحابه رضي الله عنهم .

عندئذ صنع النبي ﷺ له خاتما من فضة ، نقش عليه « محمد

رسول الله ﷺ وكتب رسالة إلى هرقل حملها اليه دحية بن خليفة الكلبي نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على مَنْ أتبع الهدى ... أما بعد فأني أدعوك بدعاية الإسلام . إسلم تسلم ... يؤتلك الله أجره مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين . ﷻ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون ﷻ .

تأمل هذه الرسالة القليلة في كلماتها . الكثيرة في معانيها . وقبل كل شيء تذكر أن هرقل هذا أحد اثنين يمثلان القوتين الأعظم . أنه يبدأ بإسم الله ، ثم يقدم اسمه على اسم هرقل الامبراطور العظيم ، ثم لا ينعتة بأمبراطور أو ملك . فالملك هو الله وحده وإنما يكتفى عليه أفضل الصلاة والسلام بأن يقرن اسمه بالعظمة في موطنه ، ثم لا يوجه اليه السلام وإنما يوجه هذا السلام إلى مَنْ أتبع الهدى بصورة عامة ، ثم يطلب منه الدخول في دين الإسلام وإلا فلن تكون له أو لأمتة السلامة ولن يكون نصيبه بأكثر من نصيب الأريسيين من الإثم . بعد ذلك دعوته دعوة صريحة إلى الإسلام . في أسلوب مباشر لا مواربة فيه .

ولقد رد هرقل على رسول الله ﷺ ردا دبلوماسيا نصه : « إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى . من قيصر ملك الروم . إنه جاءني في كتابك مع رسولك . وإني أشهد أنك رسول الله . نجذك عندنا بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإني دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبؤ . ولو أطاعوني لكان خير لهم . ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك » .

وتأمل رد هرقل وكيف قدّم اسم الرسول ﷺ على اسمه ، وكيف أشار إلى بشارة عيسى عليه السلام باسمه ، وكيف يشهد ويقر ويعترف برسالته التي بشر بها عيسى عليه السلام . وكيف بادر بعرض كتاب لرسول ﷺ إلى قومه من الروم فلم يوافقوا ، وكيف تظاهر بأنه لا يستطيع إجبارهم على الدخول في الإسلام ، وكيف أنهم لو أطاعوه لكان خيرا لهم ولكنهم لم يفعلوا . وانهى رسالته بما يشير إلى تواضعه .

ثم كانت الرسالة الثانية إلى كسرى امبراطور فارس وحملها عبد الله ابن حذافة السهمي ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله . إلى كسرى عظيم فارس . سلام على مَنْ إتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمدا عبده ورسوله إلى الناس كافة . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فاسلم تسلم . فإن أبيت فعليك آثام المجوس » .

وقرأ كسرى الرسالة . وتصورها استفزازا له فغضب وكان رده هو تمزيق الرسالة أمام حاملها الذي عاد إلى رسول الله ﷺ وبلغه ما حدث فدعا النبي الكريم أن يمزق الله ملكه كل ممزق .

وكانت الرسالة الثالثة إلى النجاشي ملك الحبشة وحملها اليه عمر ابن أمية الضمري ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . لم يتخذ

صاحباً ولا ولداً . وأن محمداً عبده ورسوله . ادعوك بدعاية الله . فإنني أنا رسول الله . فاسلم تسلم ، فإن رأيت فعليك إثم النصارى من قومك » . وكان رد النجاشي مهذباً رقيقاً . وقد قيل أن النجاشي قد أسلم وأن النبي ﷺ قد أقام صلاة الجنائز للغائب عندما علم بوفاته .

والرسالة الرابعة كانت للمقوقس عظيم مصر وحملها إليه حاطب بن أبى بلتعة ، وقد وجدت عند أهل مصر في جلد محمر اللون ولكن لم يثبت سنده . إلا أن الثابت أن المقوقس رد رداً جميلاً . ومعه هدية عبارة عن جارتين إحداهما « مارية القبطية » التي تزوجها النبي ﷺ ، والأخرى « سيرين » التي تزوجها حسان بن ثابت وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض من خيرات مصر .

وكانت الرسالة الخامسة للحارث الغساني ملك الحيرة . حملها إليه « شجاع بن وهب الاسدي » وبدلاً من أن يرد على الرسول ﷺ . يرسل إلى هرقل - وقد كانت الحيرة تحت نفوذه - يستأذنه في أن يقوم على رأس جيش لمعاينة صاحب هذه الرسالة وهو النبي ﷺ . ولكن هرقل كان أبعد نظراً من هذا المتملق المستنل . الذي كان يتمنى أن يلعب دوراً شبيهاً في عالمنا المعاصر بدور الشرطي في المنطقة . لقد رأى هرقل أن يكون هذا المتملق المستنل في شرف استقباله - أى هرقل - عند زيارته لبيت المقدس عندما يرد الصليب الذي كانت استولت عليه فارس واستردته الروم بقوة

السلاح على أن يتحرك بمجيش به بعاقب أو يؤذّب وكأن هرقل كان يشعر أن دور هذا المتملق المستذل هو دور « تشريفاتي » أكثر منه دور رجل الحرب الذى يستطيع أن يواجه النبى ﷺ ورجاله أولئك المسلحين بالعقيدة الصالحة والایمان الراسخ . ذلك أن هرقل كان هو وحده الذى تدرك معنى قوة هذا الدين ونبیه الكريم وكثيرا ما كان يتابع مواجهاته مع أعداء الاسلام ، وكان يستدعى من يلمس فيه قدرة على تحليل شخصيته كما سنرى بعد قليل قبل المواجهة العسكرية فى تبوك .

* * *

والرسالة السادسة كانت للحارث الحميرى ملك اليمن وحملها له المهاجر « ابن أمية المخزومى » ورد ردا رقيقا معلنا اسلامه ، ويطلب أن يقبل الرسول ﷺ أن يعينه عاملا له على اليمن حتى يتخلص من نفوذ فارس الذى يكرمه ويمقته ويدخل هو وبلاده اليمن فى حظيرة ذلك الدين الذى كثيرا ما سمع عنه فى شبه الجزيرة العربية . وشبهه بهذا ما جاء من أمير البحرين ، وأما أمير عمان فقد رد هو الآخر ردا فاحشا . ورد أمير اليمامة مظهرها استعدادا للدخول فى حظيرة الاسلام بشرط أن ينصب حاكما فلعله النبى لمطامعه الدنيوية .. .

وغيرها من الرسائل إلى الأمم والممالك والأمارات التى لم يمض عليها أكثر من ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول إلا وكانت كلها تابعة للدولة الإسلامية ، وأن تنتقل العاصمة من المدينة إلى دمشق التى كانت ضمن دولة ذلك الحارث الذى كان يريد أن يعاقب ويؤذّب وانتقلت إلى بغداد وإلى القاهرة وهكذا امتد الإسلام بحضارته وقيمه ذلك الامتداد الذى يعلن عن قيمته الحضارية □

كلمته
الخالدة
يوم
الفتح

وكانت كلمته الخالدة عليه الصلاة والسلام يوم الفتح العظيم
« يامعشر قريش ماذا تقولون ، وماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا :
« نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم ، وابن أخ كريم » ، وقد قدرت « وهنا قال
المصطفى عليه الصلاة والسلام : « أقول كما قال أخى يوسف لا تنهب
عليكم اليوم . يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . إذهبوا فأنتم الطلقاء » .

كلمة عظيمة خالدة لأن قائلها عظيم وخالد . خاطبه ربه سبحانه .
وتعالى بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ .

فهل هناك أعظم وأكرم من سلوك العفو عند المقدرة ؟؟ ما أعظم
هذه النفس حين تعفو ، وما أكرمها حين تسمو ، وما أرفعها حين تعلو
على الصغائر والأحقاد !

هكذا مازلت تعلمنا يارسول الله ... حتى بعد أربعة عشر قرناً من
الزمان جاءت دول ، ودالت أمم . وقامت مذاهب وهدمت غفائد ، ولمعت
أفكار وأطفئت آراء . وبقيت مواقفك باهرة صامدة قوية ضد كل ما في
الحياة من ضعف وعجز ... وضمن هذه المواقف موقفك من هؤلاء الذين
آذوك وقاتلوك وأخرجوك من ديارك ... ويبقى للزمان : عفوت عندما
قدرت ... وطلبت من ربك لهم المغفرة فهو أرحم الراحمين .

لقد كانت هذه الكلمة الخالدة في العشرين من رمضان في العام
الثامن للهجرة وهو في التاريخ الإسلامي عام الفتح ... إشارة إلى فتح مكة
معقل الكفر والشرك وقتئذ . لكن ما قصة هذا اليوم العظيم ؟ .

القصة تبدأ من يوم عودة الجيش الإسلامي من « مؤنة » بعد معركة
بين المسلمين والروم . عادوا وقد كان لواءهم لخالد بن الوليد لا هم
بالمنتصرين ولا بالمنكسرين ، وإنما راضين من غنائم الحرب بالإياب
وجسدت هذه العودة معان مختلفة عند كل طرف من أطراف المعركة ...
عند الروم والمسلمين وبالطبع قريش التي كانت ترصد وتتأمل كل حركة
للمسلمين .

هى عند الروم تعنى الفرحة والارتياح بإنسحاب المسلمين خصوصا وأن الحرب مع المسلمين على قلتهم بالقياس إلى كثرة اعداد أفراد الروم . التى قيل أن عدد أفرادها مائة ألف فى رواية أو مائتى الف فى رواية أخرى . وحمدوا زعيمهم على عدم استمرار هذه الحرب التى أضرت باقتصادياتهم من ناحية . وفتحت قلوب المشاركين فيها من الروم للإسلام . هذا الدين الذى يجعل أفرادهم ثابتين فى مواقعهم بصورة تدعو إلى الدهشة والإعجاب حتى أن الكثيرين من زعماء الروم دخلوا الإسلام الذى يصنع رجالا على هذا النحو من ناحية أخرى . يضاف إلى كل ذلك إضطراب الأحوال الإقتصادية فى الدولة بسبب الانهيار الإقتصادى الناجم عن الحرب . إلى درجة عجز الدولة عن صرف مرتبات أفراد جيش الروم الرابض أمام جيش المسلمين من ناحية ثالثة . لهذه الأسباب وغيرها كان وقف القتال بين الطرفين فيه إرتياح للروم .

* * *

وهى عند المسلمين تعنى الخسارة والاحباط . خسارة لاستشهاد ثلاثة من خيرة رجالهم وهم زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة . ثم إحباط عند المسلمين المستقبلين للعائدين من المعركة إلى درجة أنهم صاحوا فى وجه هؤلاء العائدين وعلى رأسهم خالد بن الوليد رضى الله عنه عند عودتهم : « يا فرار ... فرتم فى سبيل الله » وبلغ خجل هؤلاء العائدين أنهم لزموا بيوتهم لا يبرحونها خوفا من صبية وصغار المسلمين .

وهى عند قريش تعنى الهزيمة التى قضت على المسلمين . وبدأوا

يفكرون تفكيراً جديداً فيما قطعوه على أنفسهم من عهود حيال المسلمين كان آخرها عهد الحديبية . فلماذا يبقون على عهد حيال المنهزمين ؟ لتعد إذن الأمور إلى ما كانت عليه قبل عمرة القضاء وقبل عهد الحديبية الذى ينبغى أن ينقض فوراً وقد فعلوا . حيث بدأ ساداتهم يحرضون بنو بكر على خزاعة للاعتداء عليها ... إن ما حدث فى مؤنة يجعل قريش تعيد حساباتها من جديد . للقيام بحولة جديدة مع المسلمين .

وهرعت خزاعة شاكية إلى النبی ﷺ من إعتداء بنى بكر التی حرضتهم علیها قريش . ورأى النبی ﷺ أن الرد المناسب لنقض عهده ... هو فتح مكة .

عندئذ أرك حكام مكة كيف تورطوا فيما صنعوا ؟ فهذا عهد الحديبية قد نقض ، وهذا سلطان الدين الإسلامى يزداد بأساً وليس ضعفاً على ما كان يظن البعض عقب مؤنة . ولئن فكر المسلمون فى الانتقام لـ خزاعة لتعرضت مصالح قريش وتجارتها للخطر . إذن لا سبيل إلا للمقابلة النبی ﷺ ، لتسوية بعض الأمور ، وفى مقدمتها التفاوض حول مد فترة عهد الحديبية إلى عشر سنوات .

وتوجه حكيمهم أبو سفيان بن حرب إلى المدينة للقاء النبی ﷺ ، وجعل وجهته بيت أخته أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ . التى كانت قد عرفت عواطف النبی ﷺ إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما يعتزمه النبی فى أمر فتح مكة . ولعل ذلك كان شأن بقية المسلمين فى المدينة . ودخل بيت إخته أم حبيبة . وعندما هم أن يجلس على فراش النبی ﷺ طوته .

فلما سألهما أبوها : أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها ؟
كان جوابها : هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم
أحب أن تجلس عليه . فقال أبو سفيان : « والله لقد أصابك يابنية شر »
وخرج غاضبا . ثم كلم النبي ﷺ عن العهد واطالته ، فلم يرد عليه
شيء ، وكلم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم أن يستشفعوا له عند
رسول الله فلم يردوا عليه . فلم يجد مفرا من العودة إلى مكة بعد أن لاقى
هوانا ما بعده هوان وليبحث مع زعماء قريش ما حدث من محمد وأصحابه .

في الوقت نفسه رأى النبي ﷺ أن لا يترك لهم الفرصة حتى
يعدوا أنفسهم للقاءه . أن يجهز المسلمين لملاقاتهم فجأة . فلا يجد
المشركون فرصة للدفاع عن أنفسهم فيستسلموا دون اراقة دماء جديدة
ولذلك أمر سرا بالاستعداد الكامل لفتح مكة . منها إياهم بكتان ذلك
جيدا .

ولعل النبي ﷺ كان يتوقع أن في النفوس البشرية جوانب
ضعف ، فقد صدق توقعه حيث كتب أحدهم كتابا أعطاه لامرأة تقوم
بتسليمه إلى قريش . حتى تقف على استعدادات المسلمين للفتح . وهو
ما اكتشفه النبي ﷺ . حيث بعث في إثر هذه المرأة اثنين من أخلص
صحابته أولهما على بن أبي طالب وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضى الله
عنهما . والثاني هو الزبير بن العوام زوج ذات النطاقين اسماء بنت أبي بكر
رضى الله عنهم جميعا . فلحقا بها ، وضغطا عليها حتى أخرجت الكتاب
من جدائل شعرها ، وأحبطت المؤامرة في مهدها .

وعندما إطمأن النبي ﷺ على إعداد قواته التي بها يستطيع فتح مكة . أمر بتحريك المسلمين إلى مكة في إعداد لم تتوقعها قريش . ولعل ضخامة قوة المسلمين في هذه المرة جعلت القبائل تنضم إليهم إما رغبة في هذا الدين الذي استطاع أن يحشد كل هذه القوى أو رهبة منه . حيث يتم الانتصار وبعده يكون الحساب لمن كانت مواقفه شامته متخاذلة .

* * *

كانت قوة المسلمين كبيرة إلى درجة أن الصحراء اكتست بالبشر . وبلغ قريش أنباء هذا الزحف . فخرج لملاقاة النبي نفر من بنى هاشم في مقدمتهم عمه العباس ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابن عمته عبد الله بن المغيرة ، والأخيران « أبو سفيان ، وابن المغيرة » طلبا أن يأذن النبي لهما بملاقاته فلم يأذن فأعلنا إسلامهما . وأما عمه العباس الذي كان قد أعلن إسلامه من قبل وإنما ظل في مكة عينا على المشركين للمؤمنين . فقد أذن له بملاقاة ابن أخيه النبي ﷺ .

والحق أن عمه العباس قد راعه ما شهد من قوة جيش ابن أخيه ... فقام بدور الوسيط بينه عليه الصلاة والسلام وبين قريش - حتى لا تراق الدماء من جديد .

وسنحت للعباس الفرصة . حيث كان زعيم قريش أبو سفيان بن حرب بن أمية ... خارجا على مشارف مكة بالليل ... مع إثنين لاستطلاع قوة المسلمين . وقد عرفه في الظلام العباس ... من صوته ... فناده وأتفقا على أن يتوجها إلى الرسول ﷺ بمفرده وأن يعود من كان معه إلى مكة .

وتوجه العباس في صحبة أبو سفيان بن حرب .. إلى حيث النبي ﷺ ... مخترقا صفوف جيش المسلمين . حتى كان الصباح .. كان أبو سفيان بن حرب في حضرة النبي الكريم الذي أن رآه بادره قائلا : « ويحك أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله إلا الله ؟! فرد أبو سفيان : بأى أنت وأمى ... ما أحملك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره فقد أغنى شيئا بعد .

قال النبي ﷺ : ويحك أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟!

قال أبو سفيان : بأى أنت وأمى ! وما أحملك وأكرمك وأوصلك . أمّا والله هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئا !

وهنا تدخل العباس . موجهها الكلام إلى أبى سفيان . أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تدق عنقه . ولم يجد أبو سفيان أمام هذا الموقف . إلا أن يسلم .

فتوجه العباس بالقول إلى النبي ﷺ قائلا : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فأجعل له شيئا . فقال النبي : « نعم . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابهُ فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وعلى الجانب الآخر لم يقلل اسلام زعيم الشرك أبى سفيان بن حرب

من حرص المسلمين وحذرهم . بل احتاطوا أشد الاحتياط . وأمر النبي ﷺ أن يستبقى أبو سفيان بمضيق عند مدخل الجبل المؤدى إلى مكة ... حتى تمر أمامه القوات ليرأها عن قرب ، وليحدث بها قومه من ناحية ، وحتى لا يكون في عودته إليهم مسرعا إحتمال وجود أى مقاومة من ناحية أخرى . وكانت خطة موفقة من النبي ﷺ ، فبعد مرور القوات على أبى سفيان قال موجها حديثه للعباس عم النبي ﷺ : يا عباس ! ما لا أحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

ثم انطلق إلى قومه صائحا بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ؛ ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وتقدم النبي الكريم ... حتى أصبحت مكة أمامه دونة مقاومة .. فزاد حذره وإحتياطه . حيث وزع قواته إلى أربع فرق . جعل الزبير بن العوام قائدا للجنح الأيمن على أن يدخل مكة من شمالها . وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيسر وأمره أن يدخل مكة من أسفلها . وجعل سعد ابن عباد على قوة أهل المدينة ليدخل مكة من جانبها الغربى ، وجعل أبو عبيدة بن الجراح على رأس المهاجرين ليدخلوا مكة من أعلاها . وأمرهم جميعا ألا يقاتلوا وألا يسفكوا دما إلا إذا أكرهوا على ذلك . حتى أنه عندما علم أن سعد بن عباد كان يريد اراقة الدماء عزله على الفور وعين بدلا منه ابنه قيس بن سعد عليهما رضوان الله . حيث كان الإبن أكثر هدوءا من أبيه . فالنبي ﷺ يريد أن يدخل مكة دون اراقه دماء .

ودخلت الفرق الأربعة مكة دون مقاومة إلا فرقة خالد بن الوليد
رضي الله عنه ... لقيت مقاومة من عكرمة بن أبي جهل . وبعض رجاله
الاشداء . ولكن سرعان ما أنتصر عليهم خالد بن الوليد . وفروا هارين
خارج مكة .

وسار النبي ﷺ حتى بلغ الكعبة ، فطاف بالبيت سبع مرات
حتى إذا انتهى من طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ، ليقف النبي
الكريم على بابها ويخطب الناس مستهلاً خطبته بقوله تعالى : ﴿ يا أيها
الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ثم سألهم وردوا عليه وكانت
كلمته فأذهبوا فأنتم الطلقاء » لتكون بمثابة العفو الشامل □

وجاء يوم حنين

ولم يمض على لقاء المسلمين في مكة بعد فتحها أياما من رمضان السنة الثامنة للهجرة حتى كانوا على موعد آخر مع الحرب في حنين .
فهنالك على مقربة من مقامهم بمكة كانت هوازن متربصة . والسبب هو ما وصلها من أنباء غير سارة بالنسبة لرؤوس الشرك والكفر فيها . هذه الأنباء تفيد بأن المسلمين يتقدمون في صراعهم الدائر مع رؤوس الشرك على إمتداد الجزيرة العربية لصالحهم بالطبع . وكيف لا وقد تم لهم فتح مكة أكبر معقل للشرك في المنطقة فحطموا أصنامها ، وشدوا ساداتها إلا من

آمن ؟ ومعنى هذا كله أن الدوائر سوف تدور على هوازن هي الأخرى فلا بد أن تكون على أهبة الاستعداد للمواجهة . وياحبذا لو كانت هي البادئة بالهجوم ... لتعيد للشرك هيئته التي أهدرت - على ما يظنون - على أيدي أصحاب هذا الدين الجديد ؟!

عندئذ جمع كبيرهم « مالك بن عوف النضري » زعيم ثقيف زعماء كل من هوازن وثقيف إلى جانب نضر وجشم ليتباحثوا في أمر هذا الدين الذي يتقدم بسرعة واطراد حتى يوقفوه عند حد فإن لم يفعلوا فما حدث لمكة سوف يحدث لهم لا محالة وانتهى إجتماع الشرك على أمر مؤده . هو أن يتحركوا إلى قمم جبل حنين عند مضيق الوادئ . حتى إذا نزل المسلمون ... وكثيرا ما ينزلون .. فهذا الوادئ طريق ... هجموا عليهم هجمة رجل واحد تفقدهم توازنهم وتذهب من هول مفاجأتها بصوابهم . والأكثر والأهم تفقدهم لذة الإحساس بالإنصار العظيم الذي تحقق منذ أيام في مكة . فيعيدون حساباتهم من جديد . مدركين أن أرض الجزيرة العربية ليست ملكا لهم بعد فتح مكة وضرب رؤوس الشرك فيها . لأن في هذه الأرض مازال هناك رجال يدفعون الضر عنها ، وأى ضر بعد تحطيم أربابهم وأصنامهم وموروثاتهم ؟!

ووافق زعماء القبائل الأربعة على هذه الخطة التي عرضها عليهم كبيرهم زعيم ثقيف « مالك بن عوف النضري » . وكيف لا يوافقون على خطة تلتقي عندها مصالحهم جميعا . هذه المصالح التي تتركز في كسر شوكة الإسلام بوقف زحفه وتقدمه ومن بعد انتشاره في طول البلاد وعرضها . ومن يمنعه بعد فتح مكة ؟!

وفي الجانب الآخر ... جانب المسلمين المنتصرين والعائدين إى ديارهم بعد أن شردوا منها . فهم ولا شك يعيشون أحلى أيام النصر المؤزر مختالين بقوتهم التى أفقدت مكة وصناديدها من رجال الحرب والسياسة توازنها . فرحين بعودتهم إلى موطنهم الحبيب مكة .

ويستثنى منهم النبى ﷺ . الذى كان هو ونفر قليل من صحابته يدركون تماما أن الجولة لم تنته بعد مع رؤوس الكفر فى المنطقة وأن الانتصار فى مكة لن يمر هكذا ببساطة . فهذا الانتصار وضع على عاتقهم مسؤوليات جديدة لعل أبسطها المحافظة عليها فهناك من يترصبون بالمسلمين الدوائر . وبالفعل نبه النبى ﷺ رجاله والمقربين منه أن هناك ما يحاك له وللمسلمين من تدابير وعلمهم مواجهتها . بكل ما أوتوا من قوة ومن رباطه الخيل .. فالخطر قادم من هناك ... من ثقيف وحلفاء الشر هوازن ونضر وجشم . ولهذا الخطر ميدان تتم فيه المواجهة هو حنين . فلا بد الاعداد له . والاستعداد لمواجهته .

وكان الاعداد متمثل فى تجهيز جيش للمسلمين قوامه اثنى عشر مجاهدا . من بينهم الفين من رجال مكة الذين آمنوا بالإسلام ونبه بعد الفتح . وتحرك هذا الجيش المختال بقوته وعدته وعتاده حتى بلغوا حنيئا . التى تمركز على قممها المشركين عند المساء . وعسكروا على مقربة . فليس هناك ما يفعلونه ليلا خصوصا وهم مدركين أن العدو يملكهم وهم لا يملكونه هذه الساعة . فليتنظروا حتى يروا .

وقد رأوا ، فتأكدت توقعات النبى ﷺ من أن المشركين يضمرون

له شرا ... ففي هذه الفترة القصيرة التي يلتقي بها الخيط الاسود من الليل بالخيط الابيض من النهار ... شد المشركون شدة رجل واحد ... على هؤلاء المسلمين الذين ما برحوا يلتقطون الأنفاس من مسيرة يوم أو بعض يوم . شدوا عليهم فأمطروهم بالنبال . فأضطرب المسلمون وبالفعل اختل . توازنهم كما خطط رؤوس الشرك . حتى أن هناك من المسلمين مَنْ أطلق ساقيه للرياح فرارا بحياته ... التي أصبحت رهينة هذا النبل أو ذاك السهم . وخيم عليهم شبح الهزيمة ، وفي غمضه عين وإنبأها تغير حالهم إلى حال آخر . إذ تبدل الاعجاب والاختيال بقوتهم وكثرتهم ومن قبل إنتصارهم إلى إحساس بالخوف والجزع والإنكسار . في الوقت الذي بدأت فيه شماتة المنهزمين مؤخرا من أبناء مكة أولئك الذين مازال في قلوبهم مرض . فلم يكن الإسلام قد رسخ في قلوبهم بعد .

يحدث هذا وتتحقق توقعات النبي ﷺ . وهو باقيا هناك في مؤخرة قواته يراقبها في أسى وأسف . يراقب انسحاب فرق المسلمين واحدة بعد أخرى منهزمة مختلة التوازن . الكل في فزع من هول هذا الهجوم الخاطف المنحدر عليهم من قمة الجبل . ويحاول النبي ﷺ أن يهدى من روع هذه الجموع المضطربة . والتي أصبح لا قبل لها في مواجهة شدة هذا العدو . يحاول عليه الصلاة والسلام ولكن دون جدوى . أمرا جعله يندفع بنفسه صلوات الله وسلامه عليه . إلى صدر هذا السيل المتدفق من قوات العدو حتى يعمل على تثبيت هذه القلوب الواجفة . فيعيد إليها بعض اطمأنانها . منها إياهم أن هذه خطة للهجوم المكثف لكن ثبتوا

أمامها فسوف يكسبون المعركة وينقلب الوضع . كان يندفع وسط الصفوف مع أنه كان مستهدفا من العدو ... ولا يرجع إلى مركز قيادته إلا بعد أن يتكاثر حوله المسلمون فينكشف الأمر . فيصدده بوابل من نباله وسهامه . يعود إلى موقعه ويتكاثر حوله صحابته ممسكين بخطام دابته ... حتى لا تتحرك بصاحبها ﷺ ... وتسوء أحوال المسلمين لحظة ... بعد أخرى . فما الحرب إلا لحظات فيها النصر أو فيها الهزيمة .

وهنا طلب النبي ﷺ من عمه العباس أن ينادى المسلمين فيردهم ... فنادى العباس بصوته الجهورى : « يا معشر الانصار الذين آووا ونصروا !! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمداً حى فلهموا ... » وكرر العباس النداء حتى تجاوزت أصداؤه في جنبات الوادى . عندئذ ثاب كل إمرء إلى صوابه ... وتذكر أن فى انسحابه هزيمة لدينه ، ومحو لكل جهاده وعار ما بعده عار .. وهنا علت الاصوات مرددة : « لبيك ... لبيك » .

وأرتد المسلمون راجعون إلى ميدان الوغى . وتمهل الذى اطلق ساقيه للرياح . وتحولت سلبية الشامتين إلى إيجابية حتى لا ينكشف أمرهم بعد . وفى الوقت نفسه انكسرت موجة الهجوم الخاطف وضعت حدثه ، وانحدرت قوات المشركين من قمة الجبل إلى أسفل سفحه ، حتى أصبحوا وجها لوجه مع المسلمين فى الوادى ، وطفى ضوء النهار على ظلمة الليل ، وازداد المسلمون تماسكا والتحاما . وبدأ الصدام بين الطرفين . فنادى ﷺ : « الآن حى الوطيس إن الله لا يخلف رسوله وعده » ثم ناول عمه

العباس حفنة من الحصى القى بها في وجوه المشركين مرددا : « شاهت الوجوه » .
 وواصل المسلمون إندفاعهم . أمرا جعل العدو يفشل فيما خطط
 وفكر . وأنقلب ميزان المعركة لصالح المسلمين . عندئذ لاذت قوات العدو
 بالفرار خوفا من الفناء . تاركين نساؤهم وأمتعتهم وأموالهم ورجال منهم بلغوا
 الستة آلاف أسيرا للمسلمين .

وتعقب المسلمون المشركين إلى هوازن ، وانتصروا على فلولهم أكبر
 الانتصار . وأما كبيرهم مالك بن عوف . ذلك المحرض الأكبر على قتال
 المسلمين . فقد فر مع قومه ثقيف ليحتمي هناك بالطائف . وكان النصر
 للمسلمين بعد هزيمة منكرة وفي ذلك قول الله تعالى : ﴿ لقد نصركم الله في
 مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا
 وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته
 على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك
 جزاء الكافرين ﴾ .

طبيعي أن يتعقب المسلمون بعد النصر المحرض الأول على قتالهم
 مالك بن عوف . الذي إحتمى بالطائف . وكانت خطة المسلمين هي
 بتضييق الحصار على الطائف نفسها حتى تستسلم وتسلم « مالكا » وقد
 نجحت خطة حصار المسلمين لاعدائهم في خير بعد أحد ، وبنى قريظة
 بعد الخندق ... فلتحاصر الطائف بعد حنين ... لكن الطائف كانت
 مدينة محصنة لرجالها خبرة ودراية بفنون القتال . إلى جانب ذلك هم
 أصحاب ثروات طائلة . تجعل حصونهم أكثر قوة ومنعة .

في بادئ الأمر حدث تراشق بالنبال بين الطرفين ورأى النبي ﷺ أن إقتحام هذه الحصون قد أصبح مستحيلا . وأن بقاء المسلمين أمام هذه الحصون أصبح صعبا . ففكر عليه أفضل الصلاة والسلام في أسلوب آخر .. أن يضرب الطائف بالمنجنيق . حتى يسهل للمسلمين الاقتحام تحت ستار الضرب . لكن رجال الطائف استطاعوا أن يصدوا هذا الهجوم . بل وكبدوا المسلمين خسائر جديدة .

وفكر النبي ﷺ في أسلوب ثالث . كان قد نجح في الحرب مع بنى النضير يوم حرق نخيلهم . فلماذا لا يحرق المسلمون كروم الطائف ذات القيمة العالية في بلاد العرب . حتى يخرج أصحابها من خلف الحصون كما تخرج الثعابين من جحورها عندما تشعر بالنار تقترب إليها .

وما أن بدأ المسلمون في تنفيذ هذه الخطة حتى سارع المشركون بإرسال من يبلغ النبي ﷺ على لسانهم أن يأخذ الكروم لنفسه إن شاء ، أو أن يدعها لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة . وهنا أوقف النبي الكريم رجاله . ثم نادى أنه معتق من جاء اليه من الطائف . ففر اليه من خلف الحصون عشرون من أهلها . عرف منهم أن بالحصون ذخيرة . تكفى شهورا . عندئذ قرر النبي ﷺ العودة خصوصا بعد أن لمس ذلك في عيون رجاله . واعدأ بأنه سيعود بإذن الله إلى الطائف قريبا □

ليلة
القدر
ليلة
تعظيمه

في هذه الليلة من رمضان شرف الله سبحانه وتعالى نبينا ﷺ وعظمه حين خصه دون العالمين بالرسالة السماوية ، وينزل القرآن الكريم . وهذه الليلة التي نزل فيها القرآن وبدأت الرسالة هي ليلة القدر بنص الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ . وما دام القرآن الكريم قد نزل في ليلة القدر ، وأنه سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن في شهر رمضان .. بنص الآية الكريمة . ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾

يعنى « نزول القرآن الكريم » هو المعنى المشترك بين ليلة القدر ، وشهر رمضان ، إذن يتعين أن تكون ليلة القدر في شهر رمضان .

لكن ما معنى ليلة القدر ؟ يجيب الشيخ الإمام محمد عبده رحمه الله : سميت ليلة القدر إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيها تقدير دينه ، وتحديد الخطة لنبيه ﷺ في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف . فمن قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة . لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه ، بالرسالة » .

والسؤال الذى يطرح نفسه ، ولا شك يحول بخاطر كل مسلم هو : وفى أى ليلة من ليالى رمضان تكون ليلة القدر ؟ الشيخ الإمام عبد الحليم محمود رحمه الله يقول : « القرآن الكريم لم يحددها ، والنبي ﷺ لم يحددها أيضا . وإن كان قد حددها بالتقريب حيث يقول عليه أفضل الصلاة والسلام : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » أى أطلبوها فى العشرة الأخيرة من رمضان ثم يقرها عليه أفضل الصلاة والسلام » تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » ثم يقرب الأمر أكثر وأكثر ما يرويه ابن عمر رضى الله عنهما (قال رسول الله ﷺ من كان متحريرا فليتحرها ليلة السابع والعشرين) أى يطلبها فى ليلة السابع والعشرين من رمضان » .

ولقد رآها كثير من صحابة النبي ﷺ فى السبع الأواخر من رمضان كما تحدثنا الكتب قديمها وحديثها . وها هو أبى بن كعب رضى الله عنه يقول : « والله الذى لا اله إلا هو أنها فى رمضان ، والله إني لأعلم أى

ليلة هي ، هي ليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها . هي ليلة سبع وعشرين وأماراتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها .

على أن هناك محاولات عديدة في سبيل تحديد ليلة القدر ، وأقوال كثيرة وطريقة في الوقت نفسه . منها مثلا ما قاله البعض من أن عدد كلمات سورة « القدر » في القرآن الكريم ثلاثون كلمة كعدد أيام شهر رمضان وكلمة « هي » التي تشير إلى ليلة القدر في قوله تعالى ﴿ هو سلام هي ﴾ تقع عند رقم سبعة وعشرين من عدد كلمات السورة . هذه محاولة .

ومحاولة أخرى لا تقل طرافة وهي أن حروف « ليلة القدر » تسعة حروف . وقد ذكرت ليلة القدر في السورة ثلاث مرات على النحو التالي ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ يعني عدد الحروف في تكرارها ثلاث مرات يكون الناتج عندئذ سبعة وعشرين . وهذه محاولة .

ومحاولة ثالثة لا تقل عن محاولتين السابقتين طرافة وهي أن ليلة القدر لا تفارق ليلة الجمعة من أوتار آخر الشهر كما روى ذلك ابن العربي رحمه الله .

وغيرها من المحاولات ... إلا أنه من الثابت لنا أن القرآن الكريم لم يعينها تعيينا محددًا ، وأن النبي ﷺ لم يحددها تحديدا تاما . وبالطبع لذلك حكمة لعلها تقترب من حكمة عدم تحديد اليوم الذي يقبض فيه الإنسان إلى ربه . فلو عرف الإنسان هذا حتى لو كان بعد ألف سنة فإنه يظل

دائما في حالة رعب من إتيان هذا اليوم . كذلك الحال في عدم تحديد ليلة القدر . عندها تتحول هذه الليلة العظيمة التي كانت فاتحة عهد جديد من تاريخ الضمير فيه هدى للناس . إلى « فرصة » أو « أوكازيون » بلغة هذا الزمان فيه يعد الإنسان قائمة برغباته وطلباته التي يرجوها من الله عز وجل .

وهذه الليلة لها أفضالها التي لا تحصى ولا تعد . فيكفى مثلا أن يتحدث عنها القرآن الكريم في سور ثلاث من سوره . في سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ ، وسورة الدخان حيث يقول تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وسورة القدر حيث يقول تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ .

وفي مقدمة أفضال هذه الليلة أن القرآن الكريم نزل فيها إلى درجة أن هناك من أهل العلم من يقول أن القرآن أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وأن جبريل عليه السلام . تنزل به بعد ذلك على النبي منجما مفزقا حسب مقتضيات الحال في ثلاث وعشرين سنة .

إلا أن الإمام الشعبي رحمه الله وهو من جلة العلماء يقول : « إن المقصود من إنزال القرآن في ليلة القدر هو ابتداء نزوله » ويؤكد هذا الرأي ما جاء في « لسان العرب » حيث يرى صاحبه أن يكون المراد من انزال القرآن هو إبتداء النزول .

ويميل إلى هذا المعنى جلة من علمائنا المحدثين منهم الشيخ أحمد

حسن الباقورى رحمه إذ يقول أن القرآن صور لهذا المعنى . تجعل القول من الإمام الشعبى ، وصاحب « لسان العرب » قولاً سائغاً ومقبولاً . إن لم يكن متعيناً لأبد منه . فذلك حيث يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فإن المراد هنا أن من حضر أول الشهر فعليه أن يصومه . فأطلق الشهر وهو الكل ، وأراد أول ليلة منه وهو الجزء . وإذا ساغ هذا المعنى فقد ساغ هناك بغير فرق » .

ومن فضل هذه الليلة أن الله سبحانه وتعالى خصص لها سورة في القرآن الكريم للحديث عنها دون غيرها وهى سورة القدر .

كذلك من فضلها أن الله تعالى جعلها خيراً من ألف شهر ، والألف شهر هى ثلاثة وثمانين عاماً وأربعة أشهر . وهو عادة عمر الإنسان . إذن فهى خير من عمر الإنسان بأكمله ... ماضيه ومستقبله . أى أنها خير من الدهر كله بالنسبة للإنسان .

ومن أفضالها أيضاً أن خصها الله تعالى دون غيرها من الليالى بالسلام من غروب الشمس حتى مطلع الفجر بنص الآية الكريمة ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

فإذا كان هذا هو تقدير القرآن لهذه الليلة المباركة . فإن النبى ﷺ كان يجلبها أيضاً . ويحتفى بها ويعظمها على غيرها من الليالى . فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ . إن هذا الشهر قد حضر وفيه ليلة خير من ألف شهر . من حرمها فقد

حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرها محروم » تقدير وتعظيم من النبي الكريم لهذه الليلة .

وعن السيدة عائشة رضی الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأخير من رمضان . شد مغزره وأحيا ليله وأيقظ أهله » .
وعن أبى هريرة رضی الله عنه قال : « أخبرنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال هي في شهر رمضان في العشر الأخير ... ليلة ، إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو آخر ليلة من رمضان . من قامها إيماناً واحتساباً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وعن أنس بن مالك رضی الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ إذا كان ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون على كل قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل ... » .

وعن أبى سعيد الخدري قال : إن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ، ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية ، ثم أطلع رأسه فقال عليه الصلاة والسلام إلى أعتكف العشر الأوائل التمس هذه الليلة ، ثم اعتكف العشر الأوسط . ثم أتيت فقل لي : إنها في العشر الأخير . فمن كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأخير . ثم أرأيت هذه الليلة ثم أنسيته . وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبحتها ، فأتمسوها في العشر الأخير ، واتمسوها في كل وتر » .

قال أبى سعيد : « فمطرت السماء تلك الليلة . وكان المسجد على

عريش فبصرت عيناي رسول الله ﷺ ، وعلى جبهته أثر الماء والطين صبيحة إحدى وعشرين » .

لكن ما هو سلوك من يتشرف برؤية ليلة القدر ؟ سؤال ربما وجهت مثله إلى النبي ﷺ زوجته السيدة عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « قلت يارسول الله أرأيت أن علمت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : اللهم أنك عفو تحب العفو فأعفى عنى » .

وقد يختلف الناس حول تصورهم لليلة القدر ، وسلوكهم فيها حسب بيئاتهم وثقافتهم . فمنهم من يستقبلها بقيام ليلها وصيام نهارها إمتثالاً لأمر الله عز وجل . ومنهم من يتصورها تصور إنتفاع عاجل وتجارة رابحة ، وسماء تفتح أبوابها ، وأنوار تفيض أضواءها ، ومطالب من الله عز وجل لا تخيب ، ومنهم من يراها مناسبة فيها توزع الهدايا والعطايا .. وباليتمنا نتصور هذه الليلة كما تصورها أهل العلم حين رأوا أن ليلة القدر هي ظرف زمنى لطلائع النور المعنوى من كتاب الله . بالضبط كما كان غار حراء ظرفا مكانيا لتلك الطلائع □

لقاء هرقل فى تبوك

ويخبرنا ابن اسحاق بما يسجله ابن هشام فى السيرة النبوية . وهو ما تنقله الكتب بعد ذلك قديمها وحديثها بموضوع غزوة تبوك ... من أن عودة النبى ﷺ من آخر غزواته فى تبوك ... كانت فى رمضان العام التاسع للهجرة ... وهو فى التاريخ الإسلامى عام الوفود كما سترى بعد قليل أو عام التوبة بنص قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق

منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿٤﴾ .

صحيح أنه لم يحدث في تبوك اشتباك مباشر بين جيش العسرة الاسلامي الذي تأتى الاشارة اليه في الآية الكريمة . هذا الجيش البالغ تعداده ثلاثين الف مجاهدا . وبين جيوش الروم التي تعد وقتئذ بمئات الآلاف . لم يحدث اشتباك بين القوتين باستثناء هذه الاشتباكات الفردية في الطريق مع بعض القبائل على الحدود . إلا أن قيمة هذا اللقاء بين المسلمين والروم كانت في توجيه أنظار العالم القديم إلى قوة جديدة تضاف إلى القوتين العظميين الروم والفرس . هي قوة الدولة الإسلامية الناشئة . فيحسب لها حسابا ضمن القوى في الميزان الدولي . ومع هذا فقد كانت لكل من الطرفين المسلمين والروم دوافعه في هذا اللقاء . الذي لم يحدث فيه اشتباك مباشر بينهما .

كانت دوافع هرقل امبراطور الروم كثيرة . منها ما كان مبنى على اسطورة تقول إن شعبا مختونا سيستل ملكه . وها هم العرب الذين بعث الله فيهم رسولا منهم شعب مختون . وأن نبوة هذا الرسول ﷺ لقادرة على أن تجمع أشتات هذا الشعب لغزو الامبراطوريات التي نخر فيها الفساد . وينظر هرقل حوله في العالم القديم . فلا يجد إلا إمبراطورية الروم بعد هزيمة الفرس هي وحدها المنتظرة لهذا الغزو . فلماذا لا ينقض على هذه الدولة الناشئة ذات الشعب المختون قبل أن يشتد ساعدها .

ويتأكد له صدق ما تنبأ به هذه الاسطورة حين يبحث في أمر هذا الرسول العربى . الذى يبعث اليه خطابا . فى صيغة قوية يختمها بقوله عليه الصلاة والسلام : « اسلم تسلم » ويقرأ الخطاب قراءة عناية وتدبر ويعيد قراءته مرة ومرات .. ولا يكتفى بذلك وإنما يطلب المزيد من المعرفة عن هذا النبى الذى يكتب بهذا الاسلوب لعاهل أكبر دولة فى العالم القديم ... يريد معلومات جديدة عن صاحب هذا الخطاب حتى يستطيع من مجموعها أن يرسم له صورة صحيحة فيسأل عما إذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون هذا النبى العربى . ف قيل له : إن بالمدينة تجارا من مكة يعرفون محمدا بأعتباره من مواطنهم . فأمر بإحضارهم وكان منهم أبو سفيان بن حرب .

وكما يسجل الشيخ الإمام عبد الحليم محمود فى كتابه عن الرسول ﷺ . سأل هرقل عن أقرب هؤلاء العرب نسبا إلى الرسول فكان أبو سفيان أقربهم . فقربه منه هرقل وقال لهم : إني سائله عن أمور فإن كذبنى فكذبوه .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبت لكذبت عليه .

وبعد أن انتهى هرقل من أسئلته بدأ - عن طريق الترجمان - يقول لأبى سفيان على مشهد من الملاء الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : سألتك عن نسبه . فذكرت أنه فيكم ذا نسب . فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت : أن لا .
فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتي يقول قبل
قبله .

وسألتك : هل كان من آباءه من ملك ؟ فذكرت أن لا . قلت
لو كان من آباءه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه ؟

وسألتك : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
فذكرت : أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب
على الله .

وسألتك : أأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت ضعفاءهم
اتبعوه . فقلت أنهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون . فقلت
وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن
لا . فقلت وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت : أن لا . فقلت وكذلك الرسل لا
تغدر .

وسألتك : بم يأمركم . فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به
شيئا ، وبينهم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

بعدئذ قال هرقل : فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ثم يضيف هرقل : وقد كنت اعلم أنه خارج . لم اكن أظن أنه منكم . فلو أنى أعلم . أنى أخلص اليه . لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه .

تأمل هذه المناقشة التى دارت بين هرقل وأبو سفيان ، وصحبه وكانوا على شركهم . لتتأكد كم كانت عظمة الرسول بإعتراف الإعداء وفى مقدمتهم أبو سفيان وقتئذ وهرقل الذى ينتظر لقاءه ويعمل لهذا اللقاء الف حساب .

كذلك من دوافع هرقل تحديد نفوذ هذه الأمة الإسلامية الناشئة فهذا النفوذ لا يكتفى بهتديد نفوذه السياسى فى المنطقة ويتجاوز به إلى نفوذه الإقتصادى إلى الدينى أيضا . حيث حرر هرقل بيت المقدس من مجوسية الفرس . ورفع عليه الصليب مؤخرا .

وفى المقابل هناك دوافع للمسلمين للقاء بالروم . ومنها الحد من نفوذ الروم فى شبه الجزيرة العربية . وتحديه - وإن كان فى ذلك مهذبا رقيقا - لدعوة النبى ﷺ ورفضه لها ورفض عامله بالشام الحارث الغسانى دعوة النبى صراحة وتفكيكه فى مناخرة المسلمين وحرهم وتأديبهم محتما بهرقل ، ومن دوافع المسلمين أيضا الثأر لمن استشهد منهم فى مؤنه وعلى رأسهم ثلاثة من خيرة رجالهم هم زيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحه ، وجعفر ابن أبى طالب ... ونجاة خالد بن الوليد وجيشه بالانسحاب لا منتصرين ولا منهزمين كما عرفنا من قبل .

يضاف إلى ذلك حشود الروم على الحدود التي تهدد أمن وسلامة الدولة الإسلامية الناشئة . فلا بد وأن يكون هناك مواجهة لهذه الحشود . وهنا فكر النبي ﷺ . إما أن يتركهم يتقدمون في صحراء الجزيرة العربية ويخرج ليلقاهم في المكان الذي يحدده .

أو أن يخرج إليهم ومهاجمهم . ويختار الأمر الثاني حيث يرى أن الانتظار حتى يتوغلوا في صحراء بلاده . يترتب عليه خسران القبائل التي أسلمت أو القبائل التي تحالفت مع المسلمين .

لا بديل إذن عن الاستعداد للخروج إليهم . وفي سبيل ذلك قام عليه الصلاة والسلام بإجراء لم يتعوده منه رجاله فيما سبق من غزوات . وهو الدعوة علنا للجهاد في سبيل الله حتى يعد الناس عدتهم . نظرا لبعده المسافة عن العدو ، ولشدة الحرارة ، ولسوء الحالة الاقتصادية ، ولكثرة العدو وقوته .

وهنا تباينت المواقف . فبينما المؤمنون يتحرقون شوقا إلى هذا اللقاء للثأر لإخوانهم في الله . نجد المنافقين يجهدون أنفسهم لبث روح الهزيمة .

وفي الجانب الآخر نرى النبي ﷺ يحث أهل الغنى على الجود بمالهم في سبيل الله فتتحول أموال كل من عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم إلى خزينة الدولة . منها يجهزون هذا الجيش الإسلامي . بل ونراه صلوات الله وسلامه عليه يشاور الرجال في هذه الغزوة ومنهم « الجند بن قيس » زعيم مسلمة فيقول له ﷺ : « يا جند

هل لك في جلال بني الأصفر (أى قتال الروم) ؟ فيرد الجد مستأذنا فيقول : « يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى وإلى أحشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر » فأعرض عنه النبى الكريم . وفى ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ ومنهم من يقول إئذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنه سقطو وإن جهنم لمحيطه بالكافرين ﴾ ومن المنافقين من كان يستمع إلى النبى الكريم ، ويوافق على الجهاد . ولكنه بعد ذلك يتسلل إلى المؤمنين قائلين لهم : « لا تنفروا فى الحر » حتى يقعدونهم عن الجهاد وفى ذلك قال تعالى : ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ .

وخرج النبى ﷺ قبل رمضان بأيام قليلة فى ثلاثين الفا من المجاهدين إلى تبوك . فيعقد الالوية والرايات لصحابته من المخلصين . وسار جيش العسرة الإسلامى . وسط صعوبات لا يتصورها عقل . فالطريق وعرة ، والمسافة بعيدة ، والمناخ قاتل ، والإمكانيات متواضعة . حتى كان الظمأ يقطع الرقاب إلى درجة أن المؤمنين كانوا ينحرون ابلهم ، ويشقون بطونها ، وليشربوا ماءها ويعتصرون اكبادها حتى تبل شفاهم . التى جفت من شدة الحرارة . وراح أبو بكر رضى الله عنه ينظر إلى الرجال والدموع تترقق فى عينيه والكلمات تتلظى فى لسانه : « أيموت الناس عطشا ورسول الله فيهم ؟! » حتى إذا ذهب إلى النبى ﷺ قال : « يا رسول الله . قد عودك الله من الدعاء خيرا فأدعو الله لنا » فرد النبى الكريم :

« أتحب ذلك ؟ » قال أبو بكر : « نعم » فدعا النبي ﷺ . فإذا بسحابة تحجب الاشعة المحرقة لهذه الشمس الساطعة فمطر .

وكان أفواه من السماء فتحت بالماء ليستقبلها الظامئون اللاهثون والأصوات ترتفع بشكر الله .

وياليت ما يلاقيه المؤمنين من قسوة الطبيعة يطاول ما يلاقونه من قسوة المنافقين من بنى الإنسان الذين يستخدمون حربا نفسيا تفتت الاعصاب وها هو أحدهم يردد بين المقاتلين على أثر جموح ناقة النبي الكريم قائلين : « رسولكم يريد غزو الروم وهو لا يعرف أين ناقة » ويأتهم من يبلغهم على لسان النبي الكريم أن الناقة مكان كذا تمنعها شجرتين . ليحضى القوم فيجدونها كما حدد النبي ﷺ .

ورغم ذلك تتقدم قوات المؤمنين بعد أيام من المشقة والعسرة ليفاجأوا بأن الروم قد انسحبوا أمامهم بعد أن القى الله الرعب في قلوبهم . فتصوروا أن تعداد المسلمين عشرة أمثال تعدادها الحقيقي .

ولم يظهر لهرقل وجيوشه أثر حيث انسحب مع قومه مغلوبا على أمره بنص الآية الكريمة : ﴿ الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

ويغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية كلها . وآمن محمد ﷺ كل عادية عليها . وأقبل سائر أهل الجزيرة وفودا عليه يتقدمون

٢٠٤

منه للإيمان به وبدينه ذلك الدين الذى صنع المعجزات . ولقد كانت هذه
الغزوة خاتمة غزوات النبي ﷺ . من بعدها أقام بالمدينة مغتبطا بما أفاء الله
عليه وأكرامه بنصره □

الطائف تبدأ الإسلام صوما

وكما عرفنا عاد النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة منتصرا في أوائل
رمضان من العام التاسع للهجرة . وبالإضافة إلى هذا النصر المؤزر من عند
الله سبحانه وتعالى والذي بعده أصبح المسلمون ليسوا في حاجة إلى قتال
بعد انسحاب أكبر دولة أمامهم . بالإضافة إلى كل ذلك فقد أبرم
معاهدات أهل الحدود منها معاهدة مع يوحنا بن رؤبه صاحب « أيله »
والتي بمقتضاها يمنحه النبي ﷺ أمنا على سقيهم وسيارتهم في البر والبحر

في مقابل أن تدفع أيلة للمسلمين جزية قدرها ثلثائه دينار في كل عام .
 عاد بعد تحقيق كل هذه الإنجازات الضخمة في تاريخ الأمم ...
 ليجد حدثا عظيما في انتظاره عليه الصلاة والسلام . هذا الحدث متمثل
 في وصول أحد زعماء ثقيف بالطائف « عروة بن مسعود » إلى المدينة
 ليعلن اسلامه . ليس هذا فحسب بل ويستأذن النبي ﷺ في أن يعود إلى
 قومه ويدعوهم إلى الإسلام . ورغم اغتباطه عليه الصلاة والسلام بهذا
 الإنجاز الذي له دلالة بالنسبة لدعوة الإسلام إلا أنه أشفق على « عروة بن
 مسعود » مما فعل ومما سيفعل . لسابق معرفة النبي ﷺ بتعصب هذا
 القوم وشدته في التمسك بدينه . فأخذ عليه الصلاة والسلام يحذره منهم
 قائلا : « إنهم قاتلوك » فرد عروة بن مسعود وقد كان متحمسا لما سوف
 يفعل ، فرحا بدخوله حظيرة هذا الدين العظيم قائلا : « يارسول الله أنا
 أحب إليهم من أبكارهم » وأخذ يدلل عما يعرفه من علو مكانته وقدره
 عند قومه ومحبتهم له .

والحق أن عروة بن مسعود كان عزيزا على قومه - كما تتفق أغلب
 الروايات - إلا أن إعزازهم لصنمهم الأكبر « اللات » لم يكن أعز من إبن
 مسعود فحسب ، وإنما أيضا أعز من فلذات أكبادهم . فهذا هو بينهم
 يدعوهم إلى الإسلام ، وبأنه دخل هذا الدين بإختياره . فما كان من
 هؤلاء المتعصبين للشرك والكفر ... إلا أن أحاطوا به ورموه بالنبال من كل
 حذب وصوب حتى أصابه سهم قاتل . جزاء على ما فعل حين دعاهم
 إلى عبادة الواحد الأحد .

وهنا صدقت فراسة النبي ﷺ وتقديره وفهمه لهذا القوم من الجزيرة العربية . لكن رغم فداحة هذا الحدث وخطبه إلا أنه كان مؤشرا جديدا لأحداث أكبر وأعظم . هى فى استسلام الطائف نفسها . فلم يكن قتل عروة بن مسعود على أيدي هؤلاء المشركين من قومه جريمة نكراء تقترب بلا ثمن ، ولم يكن دمه كشهيد فى سبيل الله يراق هكذا بين الأهل والأحباب يذهب هدرا ... لم يكن كل هذا يحدث دون رد فعل من المسلمين هؤلاء الذين قويت شوكتهم فى داخل الجزيرة العربية وخارجها بعد انسحاب أكبر قوة فى العالم القديم وهى الروم أمامهم ، ، وبعد أن دان لهم جبابرة وصناديد مكة وولوا الأدبار أمامهم ليدخلوا مكة فى سلام آمنين . وبعد أن استطاع المسلمون أن يضعوا حدا لد سائس اليهود والمنافقين وأن يلزموهم بأن يكفوا عن ذلك وإلا كان مصيرهم هو نفس مصير من يحاول إيذاء الاسلام ورجاله .

وعلى الصعيد الآخر بدأ زعماء ثقيف يفكرون فيما فعلوا وهل كان حقا على صواب أم أنهم أخطأوا مرتين حين قتلوا عروة بن مسعود . مرة بقتل أحد زعماء القوم عروة ذلك الأثر لديهم ، ومرة حين كان سبب القتل هو الإسلام فكأنهم أصبحوا الآن معادين لهذا الدين عداء سافرا بعد أن كان مستترا إلى حين .

ويضاعف من قيمة هذا الحدث وهو توجه أحد زعماء ثقيف بالطائف عروة واسلامه وقتله بسبب ذلك أمور كثيرة ... أو ليست الطائف هى التى وعد النبي ﷺ بالعودة اليها حين كان يحاصرها فى غزوة

حينئذ ووعده النبي صدق وحق ؟ وأليست هي الطوائف أعز القبائل العربية جاها ومالا وسلطانا ، وأكثرها منعة وتعصبا ضد الإسلام ؟ وأليست الطوائف صاحبة « اللات » التي يحج إليها العرب كما يحجون إلى الكعبة ، ويقسمون باسمها كما يقسمون باسم رب الكعبة ؟ وأليست الطوائف هي التي كانوا يسمونها مع مكة « المكتن » أو « القرينتين » تقديرا لمركزها الديني قبل الإسلام ؟ وأليست هي الطوائف التي ناصبت الإسلام العداء منذ بزغ فجره ، فرفضت استقبال الرسول والذين معه ليحتموا بها من إيذاء قريش قبل الهجرة إلى المدينة ؟ ثم ليست الطوائف هي التي لم تكتف برفض استقبال النبي الكريم والذين معه ، بل تعاونت مع قريش ورؤوس الكفر والشرك في الجزيرة العربية ومعهم اليهود لإيذاء الإسلام وضربه في مقتل ؟ .

* * *

وفي المقابل هنالك في الطوائف شعور جديد لعله ناتج عن قوة المسلمين الذين إنسحبت أمام معنوياتهم جحافل الروم ، وتحطمت على قيمهم وإيمانهم ومبادئهم غرور وصلف وكبرياء قريش ، ودانت لقوتهم اعنى القبائل في شبه الجزيرة العربية شمالا وجنوبا وغربا وشرقا ... لقد أصبح الإسلام بكل هذه المقومات قوة عالمية بعد انسحاب الروم من أمامه . هذه الدولة العظمى التي هزمت فارس وأستردت منها الصليب .

وشعور آخر لدى الطوائف لعله ناتج عن ادراكها بأنها أصبحت محاصرة إقتصاديا نتيجة لزيادة النفوذ السياسي للإسلام . فأين تززع تجارتها ؟ وفي أى المنافذ تسوق ما أشتهرت به في الجزيرة العربية من كروم ؟

ومنْ يجرؤ - في ظل الأوضاع الجديدة - على التعامل معها متحديا بذلك قوة الدولة الإسلامية الناشئة ؟ وما موقفها الآن بعد أن أسلم كل من حولها من القبائل وبقيت هي على دينها تنتظر أن يحج إليها العرب كما كانوا يحجون . فلا يفعلون ؟ ماذا تنتظر بعد انهيار إقتصادها وهي تبقى في مكانها متحدية بمقتل عزيز لديها في مالها وثروتها ورجالها ؟ ماذا تنتظر ؟؟ ولماذا لا تهادن ؟ نعم لماذا لا تهادن هذه القوة التي تسحق كل من يقف أمامها ؟

وهنا فكر حكمائها في سبيل آخر يخرجهم من هذا الموقف الصعب ، صلح ، أو هدنة أو أى شكل من أشكال التعايش السلمى الذى ينجمهم من الفناء . وبدأوا يتشاورون ويتناقشون واستقرت الآراء على أن يتوجه كبيرهم « عبد ياليل » السياسى الماكر . للتفاوض مع المسلمين . ولأن « عبد ياليل » كان داهية حقا . وعالما بأخلاقيات قومه أيضا وأولها الغدر ... اشترط أن يصحبه خمسة آخرين من زعماء القوم . حتى لا يكون « عبد ياليل » مصيره من قومه هو نفس مصير ريجانته عروة بن مسعود الذين تنكروا له وقتلوه . أن يصحب معه الخمسة الذين يمثلون عشائر مختلفة حتى إذا عاد وأرادوا قتله فلا بد أن يقتلوا معه الخمسة . وهنا تهب العشائر مدافعة عن كبارها . فوافقوه على ذلك . فليس هناك حل آخر .

وتوجه وفد الطوائف إلى المدينة . وعلى أبوابها التقوا بالمغيرة بن شعبه . وعرف منهم ما يريدون . فأسرع حاملا البشرى إلى النبى ﷺ

بمقدم وفد الطائف وفي الطريق التقى المغيرة بالصدیق أبو بكر رضی الله عنه . الذى طلب منه - بعد أن سمع النبأ العظيم - أن يكون هو المبعث للرسول ﷺ . تقدیرا لما یحمله هذا النبأ من أهمية كبرى .

وتعرّف النبى ﷺ من أبى بكر رضی الله عنه على خبر وفد الطائف . وتشاور مع الصدیق فى ذلك . وسمح بلقاء الوفد . ورحب بهم فى دار الإسلام حتى بعد أن رفضوا أن یحيوه بتحیة الإسلام ، مصرین على أن یحيوه علیه أفضل الصلاة والسلام بتحیة الجاهلیة الأولى . ولأنه نبى ، ولأنه على خلق عظیم ، ولأنه ما بعث إلا رحمة للعالمین ... اکرم وفادتهم . فأمر بأن تقام لهم قبة بجوار مسجده . وعین خالد بن سعید وسيطا فى المفاوضات بینة علیه أفضل الصلاة والسلام و بین وفد الطائف الذى سیتزعمه کبرهم « عبد یالیل » .

وأثناء إقامتهم بالمدينة كانوا فیما صدر عنهم حذیرین أشد الحذر ، إلى درجة إنهم كانوا لا یأكلون طعاما یأتیهم من عند المسلمین حتى یجعلوا ذلك الوسیط خالد بن سعید یأكل منه قبلهم . كانوا إذا ناموا جعلوا أحدهم یقظا حتى یحرسهم مما قد یفعله فیهم المسلمین . كانوا لا يتحدثون إلاّ وأیدیهم على قبضات سیوفهم . كانوا وكانوا .. هى طبائع اكتسبوها من سنة الغدر بینهم ولم یدركوا بعد ان من دخل خطیئة الإسلام فهو آمن .

وتحددت المفاوضات بین الطرفين فى إطار استعداد هذا الوفد ومن ورائه الطائف أن یدخلوا الإسلام شریطة أن یترك صنمهم الأكبر « اللات » ثلاث سنوات وأن یعفیهم الإسلام من الصلاة . ورفض النبى ﷺ قائلا : « اسلامهم لا تسبقه شروط » .

حتى إذا خفضوا مدة بقاء صنمهم « اللات » بدون هدم سنتين من بعدها سنة من بعدها ستة أشهر أو حتى شهر كان رد النبي ﷺ : « اسلامهم لا تسبقه شروط » .

إلى أن قبلوا هدم « اللات » قائلين يحدث هذا ولكن بغير أيدينا حفاظا على مشاعر المتعصبين منا مع اشتراطهم الاعفاء من الصلاة . كان رد النبي ﷺ : « إنه لا خير في دين لا صلاة فيه ، وهادم الصلاة هادم للدين ... الإسلام مع تحطيم اللات وإقامة الصلاة ... » .

وفي أثناء ذلك استرعى إنتباه الوفد ما يصنعه المسلمون في صيامهم وقيامهم وتراحمهم حتى إن أحدهم « عثمان بن أبي العاص » كان يختلس من قومه الدقائق يعود منها بعد لقاء النبي ﷺ أو الصديق أبو بكر رضي الله عنه . حيث يتزود بما يريد معرفته عن الإسلام وأحكامه . وقد لاحظ النبي ﷺ ذلك وباركه . حتى أنه اختاره أميرا عليهم بعد الإسلام لحرصه الشديد على تعلم القرآن والتفقه في الدين الإسلامي بشكل ملفت .

وهكذا أقام الوفد أياما من رمضان صاموا فيها كما صام المسلمون . ثم عادوا إلى قومهم . بعد أن أوصى النبي ﷺ أميرهم عثمان بن أبي العاص قائلا : « تجاوز في الصلاة ، وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » عادوا وفي صحبتهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليقوما بهدم اللات ، وسط نواح النساء وبكائهن ، وحسرة الرجال وحزنهم ، وسخرية المغيرة بن سعيد وضحكاته . وأخذ المغيرة

ابن سعيد الأموال والحلى التي كانت تحت قدمى هذا الصنم وقضى بها ديننا
من الديون كما أمره النبي ﷺ .

وهكذا دخلت الطائف الاسلام صوما . وباسلامها تم إنتشار الدين
الإسلامى فى شبه الجزيرة العربية □

ودخل

الناس

الإسلام

أفواجا

ومع الأيام الأخيرة من شهر رمضان في العام التاسع للهجرة . وهو عام التوبة ، أو عام الوفود كما عرفنا ... تتوافد أفواج متتالية من القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية . على النبي ﷺ معلنة اسلامها بعد الانتصارات المتتالية للمسلمين . تلك التي انتهت بفتح مكة ، وانسحاب الروم ، واستسلام الطوائف وغيرها من القبائل . ليؤمن الناس بهذا الدين

ورسالة نبيه الكريم بنص الآية الكريمة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك وأستغفره إنه كان توابا ﴾ .

بعد هذا الاستقرار الذى حققته الدعوة الإسلامية ... يبقى النبي ﷺ بالمدينة حيث يتوافد عليه ممثلو القبائل العربية . فقد أصبح لدى العرب ميل واضح وشديد . لأن يستظلوا بلواء الإسلام أما عن إيمان بهذا الدين الذى جاء للناس كافة . أو عن مصلحة مؤداها أن يكونوا بمنجاة من تحكم القوتين الأعظم في العالم القديم وهما الروم والفرس هذا من ناحية . أو حقيقة مؤداها أن هذه القبائل . لا طاقة لها بحرب مع النبي ﷺ ، ولا قبل لها على عداوته ، ولا سبيل آخر غير مهادنته ومصانعته والإذعان لتعاليمه بعد ازدياد نفوذه في شبه الجزيرة العربية وما يحيط بها من ناحية أخرى .

ولهذا لم يكن عجبيا أو غريبا والحال كذلك أن يقدم على النبي ﷺ وفد من بنى عامر . على رأسه « عامر بن الطفيل » الذى بيّت أمرا مع عضو آخر من الوفد هو « أريد بن قيس » خلاصته قتل النبي ﷺ غدرا في أثناء استقباله عليه أفضل الصلاة والسلام .

فكر هذا المشرك في ذلك بعد أن ألح عليه قومه مرارا حاثين إياه على الدخول في الإسلام بقوله : « يا عامر إن الناس اسلموا فاسلم » .

وهنا رد عليهم عدو الله عامر بن الطفيل : « والله لقد كنت آليت

ألا انتهى حتى تتبع العرب عقبى . فأما اتبع عقب هذا الفتى من قريش «
ثم قال لشريكه في الغدر أريد بن قيس : « إذا قدمنا على الرجل (يقصد
النبي ﷺ . فأني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فأعْلهُ بالسيف »
أى فاهوى عليه بالسيف قاتلا .

فلما قدموا على النبي ﷺ بالمدينة . بدأ عامر بن الطفيل في تنفيذ
مؤامرتة من أولى لحظات اللقاء مشتركا مع قيس بن أريد . وذلك حين بادر
النبي ﷺ قائلا : يا محمد خالني « أى لتخلو لى لأتحدث معك . قال
النبي ﷺ : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده ورسوله » .

قال عدو الله شاغلا النبي ﷺ عن شريكه في الغدر قيس بن أريد
قائلا : « يا محمد خالني » وجعل يكلم النبي ﷺ ليشغله حتى يعطى
فرصة لشريكه لتنفيذ ما قد كانا إتفقا عليه قبل قدومهما وهو قتل النبي
الكريم . فرد النبي ﷺ على عدو الله عامر قائلا : « لا والله حتى تؤمن
بالله وحده ورسوله » وبقي شريك الغدر القابض على السيف لا يفعل
شيئا .

فلما رأى ابن الطفيل إمتناع شريكه حامل السيف عن فعل
ما اتفقا عليه كرر نفس الطلب مشفوعا بحديث به يشغل الرسول ﷺ
الذى يبادره بنفس الرد : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » .
وهنا صاح عدو الله غاضبا محتدا مهيدا متوعدا قائلا : « أما والله
لأملأنها عليك خيلا ورجالا » أى ليحرضن القبائل عليه لتأتى بخيلها
ورجالها . كإعلان بالحرب . فما كان من النبي إلا أن رد عليه « اللهم

اكفنى عامر بن الطفيل « بحلم لا يصدر إلا ممن بنى خاطبه ربه » ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

فلما خرجا حليفا الشر وشريكا الغدر والتآمر قال أحدهما عامر بن الطفيل للآخر : « ويلك يا أريد أين ما كنت أمرتك به » .

قال أريد : « والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره . إلا ودخلت (يقصد عامر) بينى وبين الرجل (النبى ﷺ) حتى ما أرى غيرك أمامى . أفأضربك بالسيف ؟ » .

وفى الطريق إلى قبيلتهم بعث الله إلى عامر بن الطفيل مرض الطاعون . فيصيبه فى مقتل هو عنقه بينما يكون فى بيت امرأة يهودية حتى يهلك . ويكون هلاكه مقرونا بفضح أمره لدى قومه أولا لأنه بذهابه للرسول ﷺ ووفادته لم يكن مسالما وإنما غادرا . والغدر عند العرب من الكبائر . ثانيا لأن حياته تنتهى هكذا فى بيت مشبوه لليهودية وهذا يتنافى ولو ظاهريا مع كونه زعيم لقبيلة أو حتى عشيرة .

. أما شريكه أريد بن قيس . فلم يكن مصيره هو الآخر بأقل من مصير ابن الطفيل . لقد داهمته صاعقة أحرقته هو وجمله ليكون عظة وعبرة للناس .

* * *

وصنيع مخالفا لما صنعه حليفا الشرك والغدر « عامر » و « قيس »
نجدته من أحد أعضاء وفد بنى سعد بن بكر . فبينما كان النبى ﷺ بالمسجد وسط صحابته رضوان الله عليهم . دخل عليهم الوفد ، وبينهم

« ضمام بن ثعلب » الذى يادر النبی وصحابته قائلا ! « ايكم ابن عبد المطلب ؟ » فرد النبی ﷺ : « أنا » قال ضمام : « إني أسألك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك ؟ » قال النبی ﷺ : « لا أجد في نفسي . فسل ما بدا لك ؟ » قال ضمام : « أنشدك الله الهك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك . الله بعثك الينا رسولا ؟ » . قال النبی ﷺ : « اللهم نعم » قال ضمام : « فأنشدك الله الهك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك . الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان أباءنا يعبدون معه ؟ » قال النبی ﷺ : « اللهم نعم » قال ضمام : « فأنشدك الله الهك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك . الله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس ؟ » . قال النبی ﷺ : « اللهم نعم » ...

ثم أخذ ضمام يذكر فرائض الإسلام فريضه بعد أخرى ... الزكاة والصيام والحج . ثم شرائع الإسلام بعد ذلك كلها . ينشده الله عند كل فريضة كما نشده في الفريضة التي قبلها . حتى إذا فرغ النبی الكريم من إجاباته . قال ضمام : « فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » ثم انصرف فقال النبی ﷺ لصحابته رضوان الله عليهم : « إن صدق دخل الجنة » .

وعاد ضمام إلى قومه بنى سعد بن بكر . حتى إذا أتاهم قال لهم : « بمست اللات والعزى » قالوا له : « مه يا ضمام ؟ » قال : « ويلكم انهما (أى اللات والعزى) والله لا يضران ولا ينفعان ... إن الله قد بعث رسولا

وأُنزل كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا رسوله . وقد جئتمكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه . » * * *

وتوافد على الرسول ممثلو القبائل المختلفة . وكل يناقشه في أمر هذا الدين الذي بعث من أجله . والنبي ﷺ يرد في هدوء وحلم يبعثان الثقة به ، والطمأنينة في قلب سائله . فيزداد إيمانا عن إقتناع بهذا الدين الذي لم يكن إنتشاره بحد السيف حين كان يدافع ويهاجم ... ويجاهد في سبيل الله فحسب وإنما كان إنتشاره أيضا بالحجة والدليل والإقناع والإقناع . حتى أصبحت العقول الواعية لا قبل لها برده ولا ملجأ للفرار منه إلا اليه . وهنا يعلق ابن هشام في السيرة النبوية قائلا : « فوالله ما أمسى بعد ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما » .

وهكذا كانت تتوافد القبائل ، ويتحدث رؤوسها كما يذكر ابن هشام في السيرة النبوية ، وكما افرد لها ابن سعد في طبقاته الكبرى خمسين صفحة من القطع الكبير غطاها باسمااء هذه القبائل وزعمائها وأكبر رجالها .

وسارع المشركون من أهل شبه الجزيرة إلى الدخول في الإسلام ، تاركين عبادة الأوثان ، وتطهرت بلاد العرب جميعا من الاصنام والازلام وعبادتها . تم ذلك دون إراقة للدماء . وأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجا وانتشر الإسلام في طول البلاد وعرضها . وبدأ النبي ﷺ في الخطوة الثانية . أن يثبت هذا الدين على دعائم قوية وأسس راسخة . وكان ذلك

حين بعث إلى هذه القبائل التي اعلنت اسلامها من يفقههم في أمر دينهم
الجديد ... فأختار عددا من السابقين إلى الإسلام . ممن لمس فيهم الغيرة
على هذا الدين . والعمل على تثبيتته ، والصدق في الدعوة إليه □

فى العيد الأول للإسلام

ودخل الناس فى دين الله أفواجا - كما رأينا - وأصبح لهذا الدين
ركائز وتعاليم ، قيم ومبادئ ، أخلاق وفضائل ... جميعها كانت من
أسباب انتصار إنسان ، وتقدم أمة ، وبناء حضارة .

هذا الدين كان وما زال أول مصلح ، وأهدى معلم ، وأرشد قائد ،
وأرحم مؤدب ، وأبصر مروض طبع الأرواح بالآداب الحسنة ،
والخلائق الكريمة . وأهدى العقول إلى اكتساب العلوم ، والتوسع فى المعارف .

هذا الدين الذى رفع أمة كانت من أعرق الأمم فى القسوة والتوحش
والبداءة والجهالة ... فسمّا بها إلى أرقى مراق الرحمة والمدنية والحكمة
والعلم .

وها هو نبي هذا الدين محمد صلوات الله وسلامه عليه . يجعل من
رمضان فى كل عام ... مناسبة للجهد والانتصار والتقدم . كما هو شهر
للخير والرحمة والبركة . ففي هذا الشهر المعظم جاهد وتقدم وانتصر أيام
بدر وحنين وتبوك وغيرها من أيام الإسلام المجيدة ... التى فيها تحطمت
رؤوس الشرك ، وانتهت عهود الوثنية ودالت أُم الفساد ... لتشرق على
العالمين فجر خير أمة أخرجت للناس .

أمة فيها تتعقب الفضيلة معاقل الرذيلة ، والعدل يصبح أساس
الحكم ، والتراحم يأخذ محل التناحر ، وها هو نبي هذه الأمة صلوات الله
وسلامه عليه . يخرج فى عيد الفطر (وهو أول عيد مشرع فى الإسلام
بعد الانتصار فى بدر) من كل عام - كما تحدثنا كتب السيرة - فى
رمضان السنة العاشرة للهجرة . وهى فى التاريخ الإسلامى سنة الوداع
أو عام الوداع .

سمى العام هكذا من حجة الوداع ، إذ كانت هذه الحجة هى آخر
خروج للنبي ﷺ إلى بيت الله الحرام ، وخطبته الخالدة التى نعرفها بخطبة
الوداع . التى أجمل فيها كل ركائز الإسلام من عبادات ومعاملات ... وكان
عليه الصلاة والسلام كلما فرغ من فقرة . رفع رأسه إلى المائة ألف ممن

آمنوا به وبرسالته وجاءوا لأداء فريضة الحج قائلا : « ألا هل بلغت اللهم فاشهد » . * * *

ها هو النبي ﷺ . يخرج في العيد السابق لحجة الوداع . وهو عيد الفطر المبارك . كعادته كل عام . والمسلمين حوله مسرورين مغتبطين ... بعد جهاد مرير ضد نوازع النفس لترسيخ قواعد الإيمان . وجهاد أقسى وأمر ضد أعداء الإسلام الذين كانوا يناصبون الإسلام العداء ولا يريدون أن تقوم له قائمة . ها هو يخرج يوم العيد في طريقه إلى المسجد بعد أيام حلوة هنية لها طعم الشهد وأخرى مريرة لها طعم العلقم ، يخرج في كوكبة من المؤمنين لصلاة العيد في أبهى مظهر ، وأجمل ثياب حيث يقول عن ذلك سبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما : « أمرنا النبي ﷺ في العيد أن نلبس أجود ما نجد ، وأن نتطيب بأجود ما نجد » وقال ابن القيم رضي الله عنه : « كان النبي ﷺ يلبس للعيد أجمل ثيابه ، وكان له حلة يلبسها للعيدين والجمعة » . وكان صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الصلاة يقدم الأكل أو كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « كان النبي ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ... يأكلهن وترا » أى ثلاثا أو خمسا أو سبعة . وحكمة التعجيل في الأكل قبل الصلاة في عيد الفطر من النبي ﷺ . حتى يسن الإفطار فلا يواصل الناس الصوم بعد رمضان . وقد حرص النبي الكريم على ذلك أشد الحرص على الإفطار في اليوم الأول من أيام العيد حتى يشرع للناس من بعده الاحتفال بهذا اليوم بعد مجاهدة للنفس دامت شهرا .

وكان عليه الصلاة والسلام يحرص على زكاة الفطر قبل الصلاة العيد بوقت طال أو قصر المهم أن يكون قبل هذه الصلاة حتى لا تتحول الزكاة - وهي ركن من أركان الإسلام - إلى مجرد صدقة وكما قال ابن عباس رضى الله عنه : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات » .

وكان عليه الصلاة والسلام يميز صلاة عيد الفطر في المسجد إذا كان هناك عذر كمطر ، ولكنه كان يفضل تأديتها خارج المسجد كما أشار أبو هريرة إلى ذلك قائلا : « إنهم أصابهم مطر في يوم العيد فصلى بهم النبي ﷺ في المسجد » .

وكان عليه الصلاة والسلام يشرع خروج الصبية في العيد وكذلك النساء للصلاة . بغير فرق بين البكر والثيب والشابة والعجوز والحائض كما قالت الأنصارية نسيبة رضى الله عنها : « أمرنا ﷺ أن نخرج العواتق (أى البنات البكر) والحايض في العيدين يشهدن الخير ... » إلا أن الحايض يعتزلن المصلى .

وقال ابن عباس رضى الله : « كان النبي ﷺ يخرج نسائه وبناته في العيدين ، وكان ﷺ إذا ذهب من طريق رجع من طريق آخر » أو كما قال أبو هريرة رضى الله عنه : « كان النبي ﷺ إذا خرج إلى العيد يرجع في غير الطريق الذى خرج فيه » .

وكان تحديد وقت صلاة عيد الفطر بقدر المسافة بين رحمن زوال

أو كما قال جندب رضى الله عنه : « كان النبي ﷺ يصلى بنا الفطر والشمس على قيد رحمين » أى على قدر رحمين والرحم يقدر بثلاثة أمتار . وكان ﷺ إذا دخل المصلى أدى صلاته من غير أذان ، ولا إقامة أو كما قال ابن القيم رضى الله عنه : « كان النبي ﷺ إذا انتهى إلى المصلى أخذ في الصلاة من غير أذان ولا إقامة ولا قول الصلاة جامعة » .

وقد سن لنا النبي ﷺ ركعتين لصلاة عيد الفطر ، فبهما يكبر المصلى قبل القراءات . فى الركعة الأولى سبع تكبيرات ، وفى الركعة الثانية خمس تكبيرات . ففى رواية أبو داود والدارقطنى : « قال النبي ﷺ التكبير فى الفطر سبع فى الأولى ، وخمس فى الآخرة والقراءات بعدهم » .

وخطبة العيد بعد الصلاة . وهى سنة والاستماع إليها سنة كذلك كما قال ابن عباس رضى الله عنه : « كان النبي ﷺ يخرج يوم الفطر إلى المصلى وأول شئ يبدأ به الصلاة . ثم ينصرف مقابل الناس ، والناس جلوسا فى صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم . وإن كان يريد أن يقطعه بعثا (أى يجهز جيشا) أو يأمر بشئ أمر به ثم ينصرف » .

أو كما قال فى هذا الصدد عبد الله بن السائب رضى الله عنه : « شهدت مع رسول الله ﷺ العيد . فلما قضى الصلاة قال إنا نخطب . فمن أحب أن يجلس للخطبة فليجلس ، ومن أحب أن يذهب فليذهب » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يفتتح خطبة عيد الفطر بالحمد كما

قال ابن القيم : « كان صلى الله عليه وسلم يفتتح خطبه كلها بالحمد لله . ولم يحفظ عنه في حديث واحد أنه كان يفتتح خطبتي العيد بالتكبير » .

ويؤكد مسألة بداية خطبة النبي في العيد بالحمد لله ، وليس بالتكبير شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رضى الله عنه : « لأن النبي ﷺ قال : كل امرئ ذى بال . لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » أى ناقص .

كذلك كان اللعب المباح ، واللهو البرىء ، والغناء الحسن .. من شعائر العيد وملاحمه التى شرعها النبي ﷺ . رياضة للبدن وترويحاً عن النفس وإسعاد للنفوس . أو كما قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « قدم النبي ﷺ المدينة ولهم (أى لأهل المدينة) يومان يلعبون فيهما . فقال قد أبدلكم الله تعالى خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى » .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « إن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله ﷺ في يوم عيد . فأطلعت من فوق عاتقه فطأطأ منكبيه فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبت ثم انصرفت » .

وقالت أيضاً السيدة عائشة رضى الله عنها : « دخل علينا أبو بكر في يوم عيد ، وعندنا جاريتان يذكران يوم بعث (يوم مشهود من أيام العرب) يوم قتل فيه صناديد الأوس . فقال أبو بكر . عباد الله أمزموه الشيطان عند النبي (قالها ثلاثاً) فقال رسول الله ﷺ . يا أبا بكر دعهما إن لكل قوم عيداً وإن اليوم عيدنا » .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « ... وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق (أى التروس) والحراب . وإما سألت النبی ﷺ وإما قال تشتبهن تنظرين ؟ فقلت : نعم . فأقامنى وراءه خدى على خده وقال دونكم يا بنى أرقدة (لقب الحبشة) حتى إذا مللت قال حسبك . قلت : نعم ، قال : فاذهبي . »

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « إن رسول الله ﷺ قال يومئذ ليعلم يهود المدينة أن فى ديننا فسحة . إني بعثت بحنيفية سمحة ... » .

* * *

وعلى هذا يمكن القول بأن العيد فى عصر النبوة لم يكن مجرد أداء صلاة فحسب ، وإنما كان له معانى اجتماعية وسياسية واقتصادية إلى جانب المعنى المعروف وهو الدينى .

كان العيد فى عصر النبوة أضخم تجمع عقدته قاعدة الإسلام فى المدينة . ولا يفوقه - من بعد - إلا أجتاع الحج الأكبر □

الختام

وبعد ... فهذه حقاً رحلة ممتعة مع هدى النبي ﷺ في شهر رمضان . كنا ولازلنا في رحابه نلتمس هديه في صيامه وذكاته ، في صلاته وقيامه ، في لحظات نزول الوحي وتبليغه للناس ، في حربه وسلامه ، في عفوه وشدته ... والآن هل نحن في حاجة إلى مزيد من القول بفضائل هذا الشهر المعظم ؟ .

ربما لأن فضائل شهر رمضان لا تعد ولا تحصى ، وكرم هذا الشهر لا يحصر ولا يستقصى ويكفيه فضلاً أنه شهر نزول القرآن ، وأن فيه ليلة

هى خير من ألف شهر ، ويكفيه عزا وفخرا على غيره من الشهور أن فيه تمت إنجازات المسلمين الكبرى . ففيه يوم بدر التى كانت بداية لإعلاء كلمة الله ونصرة نبيه ودينه ، وفيه فتح مكة وضرب رؤوس الكفر والشرك فى معاقلهم ، وفيه هزيمة الروم وظهور الدولة الإسلامية الناشئة كقوة فى ميزان العالم القديم ، وفيه بدأ دخول الناس فى دين الله أفواجا عن رغبة واختيار لا عن رهبة وإجبار .

إن فضل شهر رمضان على المسلمين يتجلى فيما أعده الله فيه من خير وبركة ، وأودعه فى أيامه ولياليه من صفح ومغفرة ، وفيه تفتح أبواب الجنة ، وتغلق أبواب النار ، وتصفد أفعال الشياطين ، وينادى عليهم أن أقبلوا على الخير وابتعدوا عن الشر . فى شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار .

وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان فتحت أبواب الجنان فلم يغلق منها باب واحد الشهر كله . وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب واحد الشهر كله ، وغلت عتاة الجن ، ونادى منادى من السماء كل ليلة إلى انفجار الصبح : يا باغي الخير يمم وأبشر ، ويا باغي الشر أقصر وأبعد . هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من تائب يتاب عليه ؟ هل من داع يستجاب له ؟ هل من سائل يعطى سؤاله ؟ والله عز وجل يعتق عند كل فطر من شهر رمضان كل ليلة عتقاء من النار ستون ألفا . فإذا كان يوم الفطر أعتق الله مثل ما أعتق فى جميع الشهر ثلاثين مرة ... » .

كما صدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الجنة لتزين من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان . فإذا كانت أول ليلة فيه هبت ريح من تحت العرش فتصفق أوراق الجنة . فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أطيب منه ، وتبرز الحور العين حتى يفضن بين شرف الجنة ، ثم يقلن يارضون ما هذه الليلة الجيلة ، فيجيبهن بالتلبية قائلا : يا خيرات حسان هذه أول ليلة من رمضان فتحت فيها أبواب الجنة » .

وأخيرا صدق رسول الله ﷺ في حديثه عن فضائل هذا الشهر المعظم حيث قال : « أعطيت أمتي في شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبي قبل . أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا . وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك ، وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وكل ليلة ، وأما الرابعة فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها استعدي وتزيني لعبادي أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي ، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا . وهنا قال أحد المؤمنين : أهى ليلة القدر يا رسول الله . فرد عليه الرسول ﷺ : لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا وفوا أجورهم ... » .

حقا إن لرمضان فضائله العظيمة التي لا تقدر إلا بهذه الصورة التي رأيناها منذ قليل ... صورة الرسول ﷺ وعدد من صحابته يستقبلونه مغتبطين مستبشرين يعيشونه حربا وسلاما ، جهادا للنفس وجهادا للآخرين . مرحلة بناء وإنشاء وعبادة ... تتمرج جميعها لتعطينا المعنى العظيم من فرض هذا الشهر المعظم □

المراجع

- القرآن الكريم
الأحاديث القدسية
الأحاديث النبوية
السير النبوية لابن هشام
الطبقات الكبرى لابن سعد
الإصابة لابن حجر
بغية الوعاة للسيوطي
تاريخ الخلفاء للسيوطي
تاريخ الطبري
تاريخ ابن كثير
عيون الأثر في المغازي والشمال والسير لابن سيد الناس
الفهرست لابن النديم
معجم البلدان لياقوت الحموي
إمتاع الأسماع للمقريزي
زاد المعاد لابن قيم جوزية
إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالي

تفسير المنار

فقه السنة للشيخ سيد سابق

فتاوى الشيخ الإمام الدكتور عبد الحلیم محمود

شهر رمضان فی القرآن للشيخ عبد الحلیم محمود

مع الصائمين للشيخ أحمد حسن الباقوری

حياة محمد للدكتور محمد حسين هیکل

عل هامش السيرة للدكتور طه حسين

عبقريه محمد للأستاذ عباس محمود العقاد

» » » الصديق »

» » » الإمام »

» » » عمر »

الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين

فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين

» » » صحى الإسلام »

» » » ظهر »

محمد الرسول البشر للأستاذ توفيق الحكيم

محمد نبى البر المختار للأستاذ إبراهيم الإبيارى

- نساء النبي للدكتورة عائشة عبد الرحمن
- نساء النبي للدكتور محمد بدر
- نساء النبي للأستاذ سعد هارون عاشور
- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن
- أسد الغابة في معرفة الصحابة تحقيق الدكتور محمد إبراهيم ،
والدكتور محمد أحمد عاشور
- النبي محمد والسياسة الدولية للدكتور مصطفى كمال وصفي
- محمد وحقوق الإنسان للأستاذ محمود الشرقاوي
- أبناء الرسول في كربلاء للأستاذ خالد محمد خالد
- تحقيق النصوص ونشرها للأستاذ عبد السلام هارون
- الانتصارات العربية في صدر الإسلام للمشير محمد عبد الحليم
أبو غزالة
- محمد في بشارات الأنبياء للأستاذ محمود الشرقاوي
- محمد رسول الله والذين معه للأستاذ عبد الحميد جودة السحار
- محمد رسول الحرية للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي
- في ظلال السيرة للأستاذ محمد لبيب البوهي
- قبس من هدى الرسول للدكتور إسماعيل الدفاتر
- رمضان شهر الجهاد للأستاذ محمد رجاء عبد المتجلى

محمد الرسول العظيم تأليف لفيف من العلماء
دروس مستفادة من غزوة أحد للدكتور عبد العزيز كامل
الرسول في رمضان على حسنى الخربوطلى
معجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى
إعجاز القرآن للأستاذ مصطفى الرافعى
فصل فى الإعجاز للأستاذ محمود محمد شاكر
الرسول لمحات من حياته للإمام الشيخ الدكتور محمد عبد الحليم
محمود

الحسين أبو الشهداء للعقاد
الحسين سيد شباب أهل الجنة للدكتور محمد أحمد عاشور
سبل السلام للعسقلانى
إسلاميات سامح كريم
لمحات من حياة النبی : سامح كريم .
القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله
حوليات الإسلام إعداد أحمد عطية الله .
دائرة المعارف الإسلامية المترجمة

كتب للمؤلف

كتب صدرت :

- ١ - رمضان والحرب ١٩٦٨ كتاب الإذاعة والتليفزيون
- ٢ - لمحات من حياة النبي ١٩٧٠ » » »
- ٣ - يوم عاشوراء ١٩٧١ كتاب التعاون
- ٤ - عيد الأم في الإسلام ١٩٧٢ » »
- ٥ - طه حسين مواقف وأعمال ١٩٧٤ كتاب الإذاعة
- ٦ - العقاد مواقف وأعمال ١٩٧٥ » »
- ٧ - ماذا يبقى من طه حسين ١٩٧٥ مؤسسة الشعب
- ٨ - معارك طه حسين الأدبية والفكرية ١٩٧٧ طبعة دار القلم بيروت
- ٩ - إسلاميات (الجزء الأول) ١٩٧٧ دار القلم بيروت
- ١٠ - ماذا يبقى من العقاد ١٩٧٨ دار القلم بيروت
- ١١ - طه حسين يتكلم ١٩٧٨ مؤسسة دار المعارف
- ١٢ - العقاد في معاركه الأدبية والفكرية ١٩٨٠ دار القلم بيروت
- ١٣ - العقاد في معاركه السياسية ١٩٧٩ دار القلم بيروت
- ١٤ - قلم وأفكار إسلامية (الجزء الأول) ١٩٨٤ دار الف والوفاء للنشر
- ١٥ - مع النبي في رمضان ١٩٨٩ الناشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة

كتب تحت الطبع :

- ١ - خمس كتب هزت العالم الإسلامي مقالات نشرت بالأهرام
- ٢ - قضايا معاصرة في الفن والأدب والفكر » » »
- ٣ - أفكار إسلامية صنعت الحضارة الأوربية » » »
- ٤ - الأفغانى بين الحقيقة والافتراء » » »
- ٥ - الأزهر قلعة الإسلام » » »
- ٦ - حوار السبت مع الكبار أحاديث نشرت بالأهرام
- ٧ - محمود شاكر حياته من كتاباته مقالات نشرت بالأهرام
- ٨ - رسائل متبادله بين الإمام محمد عبده وتولستوى » » »
- ٩ - على هامش تراثنا العربى » » »
- ١٠ - الشيخ الطنطاوى فى روسيا » » »
- ١١ - قمم وأفكار إسلاميه (الجزء الثانى) و (الجزء الثالث)
- ١٢ - إسلاميات (الجزء الثانى) » » »
- ١٣ - العقاد فى ذكره المائة » » »
- ١٤ - د . طه حسين فى ذكره المائة » » »
- ١٥ - كاتب عربى وجائزه عالميه

فهرس مع النبى فى ارمضات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
كلمة لابء منها	٥
قراءة جديدة فى سبرته	١١
الصوم قبل مبعثه	٢٠
وسءق رؤاه	٢٨
وحى يوحى إلهه	٣٥
القرآن معجزته	٤١
وفاة أم أولاده	٤٨
لجبريل يعلمه الصلاة	٥٤
صومه فى عام القتال	٦١
فى بئته الإنسان والمعلم	٦٨
فى حربته القائء والسباسى	٨٧
واسءجابء السماء يوم بلر	٩٥
شهداء المسلمين وقلى المشركين	١٠٢
المشركون يعلمون المسلمين الكءابة	١٠٨
وفاة ابنته ذات الهجرتين	١١٦
قلادة لءءبجة تحرر أسبرا	١٢٢

الموضوع	الصفحة
زواجه من أم المساكين	١٣٠
مولد سبطه الأكبر الحسن	١٣٧
الدرس المفيد يوم أحد	١٤٤
اعتكافه	١٥١
مواجهة اليهود في الخندق	١٥٧
سفراؤه إلى الأباطرة والملوك	١٦٥
كلمته الخالدة يوم الفتح	١٧٣
وجاء يوم حنين	١٨٢
ليلة القدر ليلة تعظيمه	١٨٩
لقاء هرقل في تبوك	١٩٦
الطائف تبدأ الإسلام صوماً	٢٠٥
ودخل الناس الإسلام أفواجا	٢١٣
في العيد الأول للإسلام	٢٢٠
الختم	٢٢٧
المراجع	١٣١
كتب للمؤلف	٢٣٥
كتب تحت الطبع	٢٣٦

رحلة مباركة مع النبي ﷺ في رمضان تستوعب صفحات هذا الكتاب .
 فيها نلمح جوانب من شخصية النبي الأعظم ، ورسالته الخالدة
 التي كانت أكبر حدث في التاريخ . فما اجتمعت الأقوام أو انفضت
 إلا لها ، وما تحدث الملاء أو سكنت إلا عنها ، وما اتفقت الآراء أو اختلفت
 إلا عليها وما تحركت الجيوش أو توقفت إلا إليها ... حتى كان قصارى بلاء
 صاحبها فيها اهتمام القوم بها .

وفي هذه الرحلة المباركة ... نتوقف عند ذلك اللقاء الفريد الذي
 انتظم طبيعتين مغايرتين هما بشرية الرسول وملائكية جبريل ، أو هذا
 الاستقبال الحافل لأول عيد في الإسلام ، أو هذه التجربة الأولى لأول صلاة في
 الإسلام ، أو ذلك الإقبال العظيم للدخول في الدين أفواجا ... ونتوقف أيضا عند
 هذه المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام في بدر والخندق والفتح وتبوك وحين
 ومع هذه وتلك يخطف إنتباهنا ذلك الهدى الشريف للنبي ﷺ
 في بيته مع أهله أو في مسجده مع صحابته ، أو هذا الأسلوب الشايع في
 معاملة اباطرة وملوك العالم القديم ، أو ذاك السلوك الكريم مع الأسرى
 والجرحى ، أو هذا التعامل الحسن لأهل الكتاب من المسيحيين ...
 متتبعين في كل ذلك هديه في صيامه وقيامه ، في وضاله واعتكافه في
 صلاته وزكاته ، في حربه وسلامه .

رحلة ممتعة تستغرق شهرا هو رمضان ... من بعده نتبين أننا أمام
 دين له قيم ومبادئ ، ومجتمع له أخلاق وفضائل ، ودوله لها نظم
 وسياسات ، وحضارة لها معالم ومقومات .

المؤلف

الشمس